مؤلفو الروايات الكاذبة وقصص أخرى

ترجمة وتقديم: د. أحمد هلال يس

المحتوى

مقدمة بقلم المترجم	3
هـ. هـ. مونرو (ساكي)	7
مؤلفو الروايات الكاذبة	8
عندما تشرَّب لون المغيب بالسمرة	16
المتأمل الحالم	24
شجرة السفرجل	32
مصرع كلبة .. للكاتب مارك شورر	39
السكين .. للكاتب جودا واتن	45
بطل العالم .. للكاتب رولد دال	62
اختفاء الأشباح .. للكاتب ويليام بلومر	105
التحليق في أجواء السعادة ساعة ... بقلم كيت تشوبين	123
الحمام الشعبي .. بقلم ميخائيل زوشنكو	130
إلهــام .. للكاتب إيزاك بابل	137
رغبة صادقة .. للكاتب جيمس ستيفنس	144
قلوب وأيادٍ مغلولة .. للكاتب و. هنري	158
الهواية التي يكرس لها قلبه .. للكاتب فردريك براون	163

مقـدمة بقلم المترجم

القصة القصيرة نوع أدبي حديث النشأة نسبياً، إذ تجلت إرهاصات هذا الفن مع مطلع القرن العشرين بما شهده من صراع الأفكار والمذاهب بين الدول بغية الاستواء على عرش القوة دون منازع، وتفشي الكشوفات العلمية في مجال الطبيعة البشرية التي كشفت النقاب عن نفثات العاطفة، وفورات الغرائز، وخطرات النفس وتصورات الخيال.

وتتسم القصة القصيرة بالإيجاز والتكثيف، مما يتيح لمن يكتنه أغوارها التسلط على أدواته الفنية، وإبداء براعته في التركيز على جلاء ما تنبض به القلوب من عواطف متضاربة، وما يعتلج بالصدور من مشاعر وأحاسيس أثناء اللحظات الحاسمة في حيوات شخصياته، فأسلوب القصة القصيرة يخلو من العناية بالتفاصيل والاهتمام بجلاء الخلفية الاجتماعية أو الاقتصادية للشخصيات مما يضمن لها أن تبرز كوسيلة فنية باهرة لسبر أغوار الشخصيات التي تعاني من اضطرابات نفسية أو نبذ المجتمع إياها كما ينبذ الحذاء البالي.

تختلف القصة القصيرة اختلافاً بيناً عن الرواية في التكنيك الفني ورسم الشخصيات، إذ تتناول الرواية الإنسان من منظور كونه كائناً اجتماعياً يندمج فيمن حوله من الأشخاص، يتأثر بهم ويؤثر في سلوكهم وردود أفعالهم، في حين أن القصة القصيرة ينصب جل اهتمامها عادة على جلاء تفاصيل لحظة فاصلة في حياة الشخصية، ولذا فإنها تطالب القارئ بأن يعمل فكره ويسرح في أكثر من ظن ويستعرض كافة الاحتمالات وذلك لخلوها مما تزخر به الرواية من وصف للأحداث في إسهاب يتيح للقارئ الإطلاع على خباياها وما تنطوي عليه من مغزى.

وتشابه القصة القصيرة القصيدة الشعرية مشابهة وثيقة بما تتسم به من إيجاز وتكاثف للمشاعر والعواطف، وكونها نتاج لحظة انفعالية حادة تدفع بالكاتب دفعاً لا هوادة فيه إلى تسجيل ما يجيش بصدره من انفعالات وأحاسيس دون أن يختط لنفسه طريقاً محدداً في الكتابة أو دون أن يقلب الأفكار على شتى وجوهها، أو يمد لنفسه فسحة التدبر والمراجعة كما يتوخى كاتب الرواية.

يضم هذا الكتاب بين دفتيه مختارات من القصة القصيرة تتراوح بين السخرية الهازئة والفكاهة البارعة من جانب، وتصوير معاناة البشر وما يعتلج بالنفس من أحاسيس الظلم والقهر من جانب آخر.

وتتسم قصص ساكي القصيرة التي يتضمنها هذا الكتاب بالفكاهة المحببة فنجدها لا تخلو من نادرة مستطرفة أو ملحة أو نكتة يتوسل بها الكاتب لهتك ستر من يعيشون بالتسول متلثمين بأقنعة زائفة من التقوى والأدب والوداعة كما في قصة

"مؤلفو الروايات الكاذبة"، أو فضح من يملأ شدقيه بلفظ العدالة، مثل العمة بيرلي كيمبل في قصة "شجرة السفرجل" التي يتقشر عنها الطلاء فتتجلى على حقيقتها عندما تعلم أن خطيب ابنتها كثبرت، متورط في السرقة المزعومة للمجوهرات أو السخرية ممن ينفخ أوداجهم الغرور، ويتيهون فخاراً بمكانتهم الاجتماعية كما في قصة "المتأمل الحالم".

وتقدم قصة "السكين" للكاتب "جودا واتن" تحليلاً نفسياً عميقاً لمشاعر وأحاسيس شاب إيطالي يقهره الفقر على الهجرة إلى أستراليا، فيجد نفسه فريسة لإحساس أليم بالاغتراب ويفيض قلبه بالحنين لأمه وإخوته وأخواته كعين متفجرة فيروح يمضغ اليأس ليل نهار بيد أن جراثيم العدوان تفور في دمه عندما يلطمه أحد الشبان الاستراليين على وجهه، فيستل سكينه ويطعنه بها طعنة قاتلة فيسقط غارقاً في دمه وربما تعد السكين التي تمنح القصة عنوانها رمزاً للشر الفطري، أو معادلاً موضوعياً للرغبة في الثأر للكرامة المستبيحة.

وتطرح قصة "الهام" للكاتب الروسي "إيزاك بابل" دراسة نفسية عميقة لأحاسيس شاب تنازعه نفسه إلى المجد الأدبي ويناوشه طموح كبير في أن يصبح كاتباً مشهوراً مثل ديستوفسكي رغم افتقاره إلى الموهبة على نحو جلي.

أما قصة "كيت تشوبين" "التحليق في أجواء السعادة ساعة" فإنها تحلل تحليلاً عميقاً مشاعر زوجة شابة يمضها إحساس أليم بالقهر وقلة الحيلة، تعلم بمصرع زوجها في حادث قطار فتشعر بفرحة كبرى تعز على التصديق والتأمل، يتبخر معها ذل القهر وانكسار القلب، وتهزج نفسها بسكرة التناغم مع الذات والحياة والكون. بيد أن الكاتب يدخر للقارئ مفاجأة مذهلة في نهاية القصة تطفئ جذوة السعادة في قلبها وتتردى بها إلى قاع الهاوية.

وتدور قصة "مصرع كلبة" للكاتب "مارك شورر" حول نفس التيمة، إذ تتناول بالتحليل مشاعر شيخ عجوز مات ابنه ويعيش مع زوجة الإبن في بيت تمتلكه، تسلط زوجة الإبن سوط القهر على رأس هذا الشيخ. ولذا تعتريه رجفة الخوف من الرأس إلى القدم ويبلغ به اليأس مداه عندما يتسبب بغفلته في مصرع الكلبة سيسي تحت عجلات سيارة كانت تسير بسرعة جنونية.

وتلذع قصة "اختفاء الأشباح" للكاتب "ويليام بلومر" بالسخرية المريرة أفراد الطبقة الأرستقراطية في إنجلترا الذين يستكينون إلى أوهامهم بالعراقة والأصالة ويطمئنون إليها.

أما قصة "بطل العالم" للكاتب "رولد دال" فإنها لا تخلو مثلها في ذلك مثل قصص ساكي القصيرة على الإجمال من الفكاهة المحببة رغم الرغبة الدكناء في

الانتقام التي شحن بها "كلود" العامل بمحطة تموين السيارات بالوقود التي يمتلكها الراوي.

وتعكس قصة "الحمام الشعبي" للكاتب "ميخائيل زوشنكو" روح التهكم والانتقاد الساخر، وإن لم تخل من دعابة محببة، التي تجتاح الكاتب حيال البيروقراطية العمياء التي صفدت الاتحاد السوفيتي بأغلالها.

أما بطل قصة "رغبة صادقة" للكاتب جيمس ستيفنس الذي بلغ الثامنة والأربعين من عمره فإنه يقص على زوجه قصة اللقاء الذي تم بينه وبين رجل غامض سأله عما ينشد بمجامع قلبه بعد أن تسنم ذروة الرجولة وراح ينحدر نحو الشيخوخة فأجابه أنه يريد أن يلزم عامه الثامن والأربعين لا يجاوزه أو يفارقه.

وتعد قصة "قلوب وأيادٍ مغلولة" وقصة "الهواية التي يكرس لها قلبه" مثالين في الإيجاز والقدرة على إثارة الدهشة اللذين يميزان القصة القصيرة كجنس أدبي.

هـ. هـ. مونرو (ساكي)

ولد ساكي (1870-1916) لأب إنجليزي كان يشغل منصب رئيس مفتشي الشرطة في بورما، وفي عام 1893 انخرط في سلك الشرطة العسكرية في بورما.

قرمنه العزم إبان فترة إقامته في لندن لانتجاع الصحة بعد مرض ألم به في بورما على التعيش من الكتابة. نشر ساكي بواكير قصصه القصيرة في مجلة وستمينستر. وفي عام 1899 اشتغل صحافياً فجاب أقطار أوروبا كلها ثم عاد إلى إنجلترا في عام 1908.

طبقت شهرة ساكي الآفاق في أوساط الكتابة الأدبية بما أبدعه من قصص قصيرة تنثر بين يدي القارئ لآلئ الفكاهة والسخرية الخفية يمازجها تصوير بديع لمشاعر تقطر مرارة ويأساً.

التحق ساكي في عام 1914 بصفوف الجيش، ثم رحل إلى فرنسا وانخرط في قتال جيوش النازي حتى لقي مصرعه في أحد الخنادق في نوفمبر 1916.

جمعت قصص ساكي القصيرة (135 قصة) في ثلاث كتب هي "ريجالند وسيرة حياة كلوفيس"، و"حيوانات عادية" و"حيوانات فائقة الذكاء والنبوغ".

كتب ساكي رواية واحدة عنوانها "باسنجتون الذي لا يُعاشر ولا يُحتمل" The Unbearable Bassington.

مؤلفو الروايات الكاذبة

بقلم: هكتور هيو مونرو (ساكي)

طوى الصيف في لندن آخر صفحاته، وتسلل الخريف بخطاه الخفيفة ينفث في الجو أنفاسه الرقيقة ويغزو القلوب بأنغامه الشجية بيد أن هذا الفصل الذي تعنو لمهابته الهام سرعان ما ينسحب أمام طلائع الشتاء بزمهريره الذي يهز كيان المرء هزاً عنيفاً والذي يهل بعد أن ينطوي الصيف الذي يتلثم بقناع زائف من الصدق والوداعة ويمد لنا من حبل الأمل فنسارع إلى شراء البصليات وتسجيل أسماءنا في قوائم الناخبين، مستسلمين للأحلام الكاذبة بالإطاحة بالحكومة استسلام الحران إلى برد النسيم.

اتخذ مورتون كروسبي مجلسه فوق أريكة خشبية في بقعة منعزلة من حديقة هايد بارك وأشعل سيجارة شرع يدخنها بتلذذ وعلى مهل جاذباً أنفاساً طويلة يزفرها متأنياً سحابة من الدخان كثيفة وهو يلحظ بشغف ورغبة في الاستطلاع زوجاً من طيور الأوز وهما يسيران متبخترين مسددين مناقيرهما لالتقاط فتات الخبز التي تلقى لهما على الأرض، بدا الذكر صورة طبق الأصل من أنثاه رغم بياضه الناصع ولونها الخمري.

لمح كروسبي بطرف خفي شبح رجل يحوم حول مجلسه كما تهيم الفراشة حول المصباح، فجعل يعاود المرور أمامه على فترات زمنية آخذة في النقصان، مثل غراب ضرب حول نفسه سياجاً من سوء الظن والتوجس وإن تحلب ريقه على لون من الطعام شهي يود الانقضاض عليه. انحط الرجل كما هو متوقع فوق الأريكة إلى جانب كروسبي تأهباً لمجاذبته الحديث.

بدا رث الهيئة مهلهل الثوب ذا لحية بيضاء متلبدة بالقذارة، وغينين تنطقان بالمكر والقحة تلوح عليه سمة اللصوصية ووصمة الخسة والدناءة ولا يفارق في هيئته الشحاذين المحترفين الذي يبسطون أيديهم في ذل سائلين ما يجود به الآخرون متوسلين بحكايات يندى لها الجبين خزياً يروونها على مدى ساعاتٍ طوال، ويبذلون كرامتهم عن طيب خاطر مشيعين كبريائهم إلى القبر نظير إشباع رغباتهم متحامين في الوقت ذاته أن يتنغص عليهم صفوهم بالارتزاق من عمل يستغرق سحابة النهار وشطراً من الليل.

ألقى الرجل الغريب ناظريه إلى الأفق مقطباً مشدود عضلات الوجه بيد أنه بدا محملقاً في لا شيء وقد تحجرت في عينيه نظرة لا معنى لها.

خرج من صمته قائلاً بصوت تشي نبراته بانفعاله وتأثره ويوحي بتمرد لسانه على تحفظه كأنما ظفر أخيراً بالشخص الذي يمكنه أن يشكو إليه بثه وحزنه: إن عالمنا من الشذوذ والغرابة في غاية.

بيد أنه عندما لم يجد صدى لعبارته في نفس من يحادثه، تساءل برجاء مشبع بالتودد: ألا ترمق العالم من حولك مثلي بعين الغرابة؟

فأجاب كروسبي بصوت مليء بالثقة: إن إحساسي بالغرابة عن هذا العالم قد اغتاله ما تعلمت من دروس عن معاناة وخبرة طوال ستة وثلاثين عاماً.

تفحصه ذو اللحية البيضاء بنظرة ثاقبة وقال: بوسعي أن أقص عليك أحداثاً وقعت لي تعز على التصديق وتنفغر لها الأفواه من عجب لانبهام مغزاها على الإدراك كلية.

قال كروسبي بلهجة ناطقة بالملل: لم تعد مثل هذه الأحداث الواقعية تثير الدهشة إذ أن الأدباء المحترفين قد وقعوا بأسمائهم في سجل الخلود وجريدة الذكر ببراعتهم الفائقة في وصف هذه الأحداث، ولأضرب لك مثلاً يلقي ضوءاً كاشفاً عن هذه الحقيقة، فطالما روى لي جيراني حكايات تبعث الرعشة في المفاصل عن كلابهم من فصيلة الأبردين التي تتمضمض بدماء عراقيب الرجال والتشاو ذوات الأصول الصينية والبوروزي الروسية الأصل، بيد أنني كنت دوماً أعيرها أذناً صمّاء، رغم أنني قرأت كتاب "كلب باسكرفيل" ثلاث مرات.

جعل الرجل الملتحي يتململ ويتأرق في جلسته كأنه يجلس على مشواة ثم قال ممهداً لمجرى جديد من الحديث: ثمة هالة من القداسة تتحلق حولك، فوجهك ينور بالإيمان والطمأنينة، أعتقد أنك مسيحي عميق الإيمان. استرسلت عينا كروسبي في نظرة شاردة غائبة فبدتا كأنما تعكسان نظرة منداحة في متاهات الخيال وهو يقول: إنني عضو بارز في الطائفة الإسلامية في شرق فارس يخطف بريقي الأبصار. لاحت في عيني ذي اللحية دهشة لا تخلو من انزعاج. دهش دهش من أخذ على غرة من حيث لم يتوقع فركبه الارتباك، بيد أنه بذل غاية جهده ليضبط أعصابه ويتمالك نفسه. تساءل بوجه متقلص من الانفعال والحزن: بلاد فارس؟! لم يخطر على بالي إنك من بلاد فارس.

ـ لست فارسياً إن والدي هو الذي كان أفغانياً.

فصل بينهما صمت أثقل من الليل الزاحف. حارت في عيني ذي اللحية نظرة قلقة تنذر بالشقاء. تساءل وقد لفته حيرة شديدة وإن تلهفت نفسه على بصيص من النور: أفغاني؟. بيد أنه سرعان ما تمالك نفسه فاستعاد هدوءه ورباطة جأشه تمتم قائلاً: أفغانستان. إنني أعلم أنه نشب بيننا وبينها بعض المعارك.. بيد أنني أود الآن لو

أننا استفدنا من علمها وحضارتها بدلاً من شن حروب ضدها. إنها بلاد وافرة الثراء فلا أعتقد أن ثمة امرئ هناك يرزح تحت وقر الفقر".

ندت عنه الجملة الأخيرة وقد تعثرت الألفاظ على شفتيه مقاطع ممزقة مبتورة مما يشي بما يعتلج بصدره من مشاعر الألم والحسرة حيال كارثة الفقر. كان بوسع كروسبي أن يقرأ أعماقه بسهولة وإن راغ روغان الثعلب. تمطت شياطين العبث في نفسه فقال وهو يتكلف الابتسام حتى لا يبدو على وجهه أثر من إحساسه: بيد أن هذه البلاد تغص بعدد هائل من الشحاذين متوقدي الخاطر على غاية من العبقرية والذكاء فلو لم أكن وصفت منذ لحظة ما وقع من أحداث تعز على التصديق بقلة الشأن والتفاهة لقصصت عليك قصة إبراهيم وقافلة الجمال الأحد عشر المحملة بالمتاع هذا إلى أنني قد نسيت خاتمة أحداثها العجيبة.

قال ذو اللحية بلهجة من يرغب في الإجهاز على الحديث عن إبراهيم وقافلة الجمال: لقد أصابني تغير في صميم كياني وتبدت لي الدنيا غشاء من الألغاز.

ضغط كروسبي على جناحي أنفه بأصبعيه متأملاً ثم قال: ثمة وجهة في النظر تساير الواقع والمنطق الصحيح تكشف النقاب عن هذا اللغز إذ ترى أن حياة المرء تتغير من جذورها كل سبع سنين.

قال ذو اللحية بلهجة تشي بتصميمه على أن يعطف الحديث إلى غايته: إن ما أعنيه هو أن شعور الإحباط واليأس الذي يجثم فوق صدري هو شعور طارئ.

هتف كروسبي متجهماً بنبرة صارمة: أراك تخالفني في كل ما أقول إن هذا الكلام يقع من نفسي موقع السم الزعاف. إنني أعده وقاحة. بمثابة طعنة نجلاء تخترق شغاف قلبي إنني أحس جرحاً دامياً في صميم كبريائي، فالرجل الذي تخاطبه الآن قد غدا ملء الأسماع في بلاد الأفغان صيتاً بعيداً وسمعة طيبة لما يشتهر به من حسن إدارة دفة الحديث.

قال ذو اللحية بلهجة لاهثة: ليس هذا ما أعني إن حديثك يستبد بمشاعري استبداد المال بقلب اليهودي الشحيح. بيد أنني أشير في الواقع إلى الورطة المالية عسيرة المخرج التي انزلقت إليها فقد بلغت من العوز أدناه كما أنني لا أعتقد أن هذه السحابة من الغم والنكد التي تظلني سوف تنقشع في الأيام القليلة القادمة. سكت ريثما جمع أنفاسه ثم استدرك قائلاً: إنني لا أعتقد أن الحياة قد تصدت لك قط بمثل هذا الوجه العبوس. اشتعل كروسبي باهتمام داهم حاد فقال: كان يعيش في مدينة "يوم" مسقط رأسي والتي تقع في جنوب أفغانستان فيلسوف صيني كان لا يني عن الإشادة بنعم ثلاث تحلق بالمرء في سماء السعادة والغبطة، أحد هذه النعم هو أن تتهدد الفاقة أسرته، بيد أنني نسيت النعمتين الأخريين.

بردت نظرة عينيه وغشيتها الخيبة والانزعاج. قال بصوت يكاد يطمسه رماد الأمل وتشي نبراته بانطفاء شعلة حماسه لذكرى هذا الفيلسوف الصيني كما ينطفئ المصباح بغتة لانقطاع التيار: وهل كان يطابق بين إيمانه هذا وسلوكه؟

فأجابه بنبرة الوعاظ: لم يكن يشكو همه لأحد، وكان يرفل في حلل السعادة رغم أن المعيشة كانت ترهقه إلى درجة عدم الاحتمال.

قال ذو اللحية بلهجة لاهثة: إنني أعتقد أنه لم يكن يعدم أصدقاء كانوا يمدون له يد العون كي ينتشلوه من مأزق ليس منه فكاك مثل المأزق الذي وقعت فيه.

قال كروسبي متفلسفاً: ليس ثمة ضرورة لأن تحظى بأصدقاء في "يوم" كي ينتشلوك من وهدة الشقاء والعوز عندما تضيق عليك الدنيا، وتترادف عليك المصائب وتتوالى النكبات فمن الحقائق التي لا تقبل الجدل أن أي مواطن في هذه المدينة لا يقبض يده دون أي غريب يقاسي شظف العيش والهوان.

وقع القول في نفسه موقع الماء "من ذي الغُلَّة الصادي" التمعت في عينيه نظرة ماكرة وقال: هب أن شخصاً مثلي انزلق في هاوية الإفلاس دون أن تسول له نفسه أن يسلك سلوكاً شائناً أو يترك زمامه لدفعات الهوى، ا ستوهب أحد مواطني هذه المدينة التي تتحدث عنها وتتغنى بمآثرها قرضاً صغيراً كي ينتشله من هاوية الإفلاس. خمسة شلنات وحسب (ثم واصل بعد تردد) أو مبلغاً يزيد عن ذلك قليلاً فهل سيثب لاقتناص هذه الفرصة السانحة كي يقدم دليلاً على رسوخ إيمانه بالشعار الذي يأتم به مواطنو هذه المدينة؟!

قال كروسبي وشبه ابتسامة تلوح في عينيه: لا يجد هذا المواطن لنفسه بُداً من اصطحاب من يستوهبه قرضاً إلى أحد الحانات كي ينهل من النبيذ حتى تتوهج روحه بالنشوة والبهجة وتدغدغ الخمر رأسه وتعانقه فرحة شاملة فيهتز طرباً وبعد أن يتوكد له أنه مفعم خمراً حتى قمته يشرع في معاطاته حديثاً يقطر حكمة وخبرة ثم يدس يده في جيبه، ويستخرج نقوداً يغمز بها كف الرجل ثم يربت على منكبه بحنان وهو يسكن خاطره بما يسعه من كلم طيب. إنني أقر أن هذا الأسلوب في تقديم المعونة للبائسين والمحرومين لا يخلو من مداورة ومحاورة رغم صدق النوايا بيد أن مشاعر العجب والدهشة تتبدد عندما تثقف مثلي شتى المعارف الروحية التي ينهل من منابعها أهل الشرق.

تألقت عينا ذي اللحية ببريق أمل، اندلعت فكرة في نفسه فقال في لهجة لا تخلو من سخرية: أعتقد أنك في موطنك الجديد هجرت هذه العادات المتأصلة في مدينة "يوم". فقال كروسبي مجتاحاً بدفقة حماس: إن أي امرئ تملي الخضرة المتألقة التي تضيء بها تلال "يوم" وهضابها والتي تنتشر في جنباتها أشجار اللوز والمشمش بوفرة سخية، وتهادى إلى أذنيه صوت خرير الماء وهو ينساب هابطاً من

الجبال الشاهقة الارتفاع المكللة هاماتها بالثلوج أو ألقي ببصره إلى الماء تتدافع أمواجه في هياج واصطخاب أسفل الجسور الخشبية الصغيرة بينما هو يضطجع على راحتيه ماداً ساقيه فوق العشب الندي تنهمر فوقه أعذب ألحان الوجود ونشواته.. أقول إن مثل هذا الشخص الذي تسجع هذه الذكريات في قلبه أعذب الألحان لن يسعه أبداً أن ينبذ هذه العادات المحببة إلى القلوب بما تنطوي عليه من مثل عليا لا أزال استمسك بها رغم رحيلي عن هذه المدينة التي تحدق بها هالة من القداسة تعز على التصديق والتي كلما خطرت على بالي يتفجر قلبي بالشوق ويفيض بي حنين موجع بما تثير في قلبي من مكامن ذكريات الشباب الجميلة.

تزحزح ذو اللحية قليلاً صوب كروسبي حتى خيل إليه أنه يسمع رفيف أنفاسه، ويحس بها تلفح خده. قال وقد تلثم بقناع زائف من الأدب والوداعة وهو يغالب الطمع الذي تحرك في صدره أن يستثير ريبته: إنني في مسيس الحاجة إلى نقود فهل توافق أن تهبني قرضاً صغيراً.. وليكن..

تكلف كروسبي الابتسام حتى لا يبدو على وجهه أثر من إحساسه وقال: إنني طوع بنانك ورهن إشارتك بيد أن ثمة عذراً قهرياً يحول بيني وبين الاستجابة لطلبك. إذ أنه وفقاً للتقاليد والأعراف التي يستمسك بها كل فرد من أفراد شعبنا الكريم المحتد، يحظر على المرء أن يهب أو يستوهب الآخرين قروضاً أو هدايا مالية أو عينية إبان شهري نوفمبر وديسمبر. ثمة اعتقاد بأن الحديث عن هذه الأمور فحسب إبان تلك الفترة يجلب الحظ السيىء، ولذا يتحامى الجميع من الخوض فيها فلنقفل باب الحديث في هذا الموضوع.

ندت عن كروسبي حركة تنبئ بنهوضه فقال ذو اللحية وهو يستشعر نذر تقوض المجلس بصوت خامل محشرج بالخيبة وإن نمت نبرته عن غيظ مكتوم: ولكن شهر أكتوبر لم ينصرم بعد فلا يزال أمامنا ثمانية أيام حتى نهايته، فقال كروسبي وقد أخذ رأسه يحمي بالحدة: إن الأمس وفقاً للتقويم الأفغاني كان أول يوم في شهر نوفمبر. ثم انتفض واقفاً وهرول مسرعاً إلى الطريق العام مخلفاً وراءه رفيقه جالساً كالتمثال يصليه نظرات ملتهبة من عينين متقدتين. شرع ذو اللحية يهامس نفسه مغمغماً وقد عكست عيناه نظرة قرف ممتعضة وانعقدت فوق جبينه تكشيرة كاللعنة: أعجب به من رجل تجرى في عروقه دماء النذالة والضعةّ! إني لا أصدق كلمة واحدة في روايته المختلقة من جذورها، فالأكاذيب تنبعث في نفسه بوحي البديهة. يدعي أنه من أفغان.. أعجب به من رجل فظ غليظ القلب!. يخيل إلى أن به شبهاً بالشيطان.

راح يهدر بأقذع الشتائم وهو ينتفض من شدة الغضب والانفعال مقدار ربع الساعة قبل أن تنحسر عنه موجة الجنون وتسكن فورته.

إن هذه الحكاية تدعم صحة المثل القائل بأن نذر الشقاق تحدث دائماً بين الأشخاص الذين يشابهون بعضهم بعضاً في السيرة والأخلاق، وإن تلثم أحدهم بقناع زائف من الأدب والوداعة أو زخرف أهواءه بكلمات التقوى المضيئة.

عندما تشرَّب لون المغيب بالسمرة

بقلم: ساكي

اطمأن نورمان جورتسباي في جلسته على أريكة حجرية في متنزه هايد بارك مولياً ظهره قطعة معشوشبة من الأرض تنتثر في جنباتها الأشجار بوفرة سخية يطوقها سور حديدي في حين امتد أمامه طريق واسع للعربات. تناهى إلى سمعه من ركن هايد بارك إلى يمينه مباشرة أزيز السيارات مصحوباً بصرصرة آلات التنبيه تكدر الهدوء الشامل. كانت عقارب الساعة تشير إلى السادسة والنصف من أحد أماسي شهر مارس وقد أطبق الليل ناشراً جناحيه فتدثر الكون بغلالة داكنة هادئة تردد أنفاساً ضعيفة كأنها أنفاس شيخوخة فانية. استحكم ظلام المغيب لا يخففه إلا ضوء قمر شديد الخفوت غشيت وجهه سحابة طارئة وأضواء مصابيح المتنزه المتباعدة وقد أقفرت الطرقات ومماشي الحديقة من السابلة إلا من نفر قليل يمشون في الطرقات في شبه ظلام تتخلله أنوار متباعدة خافتة أو يجلسون على الأرائك الحجرية وقد ذابوا في الظلمة التي طمست معالم الأشياء أو كادت.

استهوى جورتسباي هذا الجو المفعم بالشجن والأسى إذ كان يعبره حينئذٍ إحساس بالأسى ترسبت نغمته في أعماقه. فعندما تزحف الظلمة تغشى الكون في ثوب حداد يتخايل أمام عيني المرء مصير آماله وهي تتطاير أشلاء وشظايا فيستنيم إلى قبضة اليأس ويغشاه أسى نبيل فتنقبض أوتار قلبه باعثة لحناً جنائزياً فالرجال والنساء الذين تصدت الحياة لهم بوجه عبوس فتقوضت دنياهم، وتبدد حلمهم وتبخرت سعادتهم يتوارون عن العيون المستطلعة أن تلمح عليهم ظلال الألم الدفين والأمل الخابي فتجدهم يهيمون في طرقات المتنزه مستخفين بالظلمة التي تغشي الكون وقد طأطأوا الرؤوس مثبتين عيونهم في أقدامهم وشاردين بخيالهم، يفصح مظهرهم عن إهمال صريح نتيجة للطبع أو نسيان الذات: سرعان ما استعادت ذاكرته الأبيات التالية

إن الملك الذي تجرع كأس الهزيمة حتى ثمالتها

يلمح نظرات الشماتة والإنكار تتجلى في العيون

فالإنسان يحمل بين جنبيه قلباً من حجر!

إن هؤلاء الأشخاص الذين فرضوا على أنفسهم سياجاً من العزلة مؤثرين الخلوة إلى أنفسهم يغشون المتنزه في هذه الساعة مستخفين بالظلمة كالخفافيش فيداخلهم ارتياح غامض غريب يمازجه إحساس بالشجن وهم ينصتون إلى لحن الحزن الخافت المتردد بين جنبات المتنزه وقد هجره مرتادوه الشرعيون.

كان الطريق المترامي أمام سياج الشجيرات يتلألأ بالأنوار، يستبق فوق أديمه السيارات في تيارات متدفقة خيل إليه أن أصوات الطريق تترامى إليهم كأنما هي نعي للوجود، نعي لأي معنى، في حين انبعثت من نوافذ عديدة أنوار بهيجة شق سناها الظلام الهابط الذي كادت معالم الدنيا تختفي في جوفه، معلنة عن صنف آخر من البشر يتوثبون بهمة صلبة للكفاح أو على الأقل يأبون أن يقدموا أنفسهم لقمة سائغة لمشاعر الإخفاق والخيبة تزدردها دون رحمة.

استرسلت عينا جورتسباي في نظرة شاردة حالمة والصور تنثال على خياله وقد جلس على الأريكة يقلب البصر في مماشي المتنزه شبه الخالية. تنهد في حزن كأنه بنيان يتقوض وخيل إليه أن قلبه ينسحق تحت الأسى والشجن وأنه يغوص مثل مرتادي المتنزه في هذه اللحظة في أعماق خيبة جامعة. لم يكن يشقى بشظف العيش وعسر الحياة لذا لم يكن ضيق ذات اليد يحول بينه وبين مغادرة مجلسه الغارق في الظلام مولياً وجهته شطر الطريق العمومي الذي يموج بحشد من الخلق يتسكع في جنباته، يملأون الجو برنين ضحكاتهم وقد تألقوا بنشوة لا يعتورها أدنى خمول، وتجتاحهم نفثات الأحلام الذهبية ويحترقون توقاً إلى الحياة الباهرة.

ولكنه آثر الجلوس في شبه ظلام يعلوه الوجوم والانكسار وقد استقر في أعماق نفسه حزن خفي وراح يجيل عينيه في رواد المتنزه محمولاً بتيار الإشفاق والقلق حيال طبيعة الحياة الغامضة ولحن الحزن الخافت المتردد تحت سطح الأنوار الباهرة والانتصارات المتألقة.

دنا منه كهل دون أن يحسه وجلس إلى جانبه على الأريكة. طالعه الغريب بوجه يحمل آثاراً غابرة لثقة مكينة بالنفس وتحد تجمع في زاويتي فيه وإن وشت أساريره بأنه يعاني آلامه في صبر، بعد أن شيع كبريائه إلى القبر وهو كظيم. لم يكن مهمل الهندام أو رث الهيئة إذ بدا أنيق الملبس على الأقل في هذه الظلمة التي ألفتها عينا جورتسباي فبهتت وخفت وطأتها وإن خيل إليه أن إنساناً مثل هذا الكهل لا يسعه بعثرة نقوده لابتياع الشيكولاتة أو وردة يرشقها في عروة الجاكتة.

بدا غارقاً في الوحدة والكهولة حتى قمة رأسه، فسلكه جورتسابي في زمرة البؤساء الذين تجهمت لهم الأقدار فأنزووا في حياة جافة موحشة لا نسمة فيها ولا أمل بعد أن سقطوا من عيون الغربال وضاعوا في الحثالة، وأيقنوا في قرارة أنفسهم أن وزنهم عند الناس أخف من الهباءة العالقة في الهواء الساكن.

وعندما اتكأ الكهل على ركبتيه وقام جاهداً تمثل لخيال جورتسباي عودته إلى منزله كشمعة لم يبق منها إلا عقب فتيلة سرعان ما تنطفئ لما سوف يلقاه من تجاهل بيّن من أفراد أسرته أو انهيالهم عليه باللوم والتقريع، أو عودته بعد أن يمشي طويلاً دون هدف وفي غفلة تامة عن الشوارع التي يخبط فيها إلى غرفة يكتريها في أحد المنازل التي تنشر عليها الكآبة رداءها يطارده ليل نهار شبح العجز عن دفع إيجارة

الغرفة في موعدها. ابتعد شبح الرجل حتى ذاب في الظلام الذي نشر رواقه في جنبات المتنزه. سرعان ما شغل موضع الكهل الشاغر على الأريكة شاب أنيق الملبس والهندام وإن ظللت الكآبة وجهه وعينيه مثل ذلك الكهل الذي أخلى الموضع منذ لحظات قليلة. انحط فوق الأريكة وهو ينفخ متغيظاً ثم راح يهدر بأقذع الشتائم منفساً عن غضبه المستعر على الدنيا التي تبدت له آنذاك عجوزاً ماكرة قاسية لا حد لمكرها ولا لقسوتها. لم يجد جورتسباي لنفسه بُداً من مخاطبته تملصاً من الحرج فقال له: "يبدو لي من انقباض أساريرك وبوارق الغضب التي تلوح في عينيك أن جوانحك تشتعل بالحنق وأن الغيظ يحتدم بصدرك. ألقى الغريب ناظريه إلى الأفق، مقطباً مشدود عضلات الوجه، ثم التفت صوبه ورنا إليه بنظرة تقطر صراحةً وصدق كفيلين بجذبه إلى رأيه سلفاً مما دعا جورتسباي إلى أن يستجمع يقظته ويستحضر حذره أن يقع فريسة جشع هذا الشاب وطمعه.

قال الشاب مرّوحاً عن غيظه الذي عز عليه المتنفس:

إنك لن تطيب نفساً وتفرك يديك حبوراً عندما تجد نفسك في ورطة عسيرة المخرج مثلي. إن ما ارتكبت يعد أمراً من السخف وسوء التقدير في غاية.

تساءل جورتسباي مصطنعاً نبرة مشجعة على مواصلة الحديث، وإن لم يستطع مداراة الفتور الذي استقر في عينيه: ماذا فعلت؟ فقال الشاب:

وصلت إلى لندن عصر اليوم وكنت اعتزم الإقامة في فندق باتاجونيان القائم في ميدان بركشاير بيد أنني علمت أنه هدم من أسابيع قلائل وشيد مكانه دار سينما ولذا نصح لي سائق التاكسي بالإقامة في فندق آخر.. فور أن دخلت حجرتي بالفندق حررت خطاباً إلى أهلي ضمنته عنوان الفندق ثم خرجت لشراء قطعة من الصابون إذ أنني نسيت أن أضع صابونتي في الحقيبة عند حزم أمتعتي، كما أنني أجفل من استخدام صابون الفندق ومشيت على مهل مفعماً بأنفاس الربيع ثم عطفت على بار إذ نازعتني نفسي إلى جرعة كونياك. رحت أخبط في الشوارع مشياً كما اتفق تجذبني معارض الحوانيت كربة بيت إلا أنني عندما درت على عقبي لأعود من حيث أتيت اعترضتني عقبة لم ترد لي بحسبان إذ تذكرت بغتة أنني نسيت اسم الفندق واسم الشارع الذي يقع به يا لها من ورطة عسيرة المخرج تزلزل نفس الغريب الذي يعدم أقارب أو أصدقاء في لندن! كان بوسعي بطبيعة الحال أن أرسل خطاباً بالبريد إلى أسرتي أطلب إليهم فيه موافاتي بعنوان الفندق. بيد أنهم لن يصلهم خطابي قبل الغد في حين أنني لا أملك الآن بنساً واحداً، إذ غادرت الفندق لا أحمل معي سوى شلناً واحداً أنفقته في شراء قطعة من الصابون وكأس أو كأسين من الشراب ولذا فإنني سوف أقطع شطراً من هذه الليلة متسكعاً حتى يسلمني الإرهاق إلى نوم عميق تحت شجرة وأنا أتلوى من عض أنياب الجوع ما لم يمد لي امرئ تغمر قلبه عاطفة الخير يد المعونة، وينتشلني من أزمتي الخانقة. صمت حتى تستقر كلماته في مستقرها من

نفس جورتسباي ثم تمتم مستاء: أعتقد أنك يساورك شك من ناحية صدقي وأمانتي وتظن أن ما قصصته عليك حكاية مختلفة من جذورها ولا أساس لها في الواقع!

فقال جورتسباي بصوت هادئ جاد كالقاضي ينطق بالحكم:

إن حكايتك لا تعز على التصديق كلية فقد وقع لي حادث مشابه ذات مرة في عاصمة أحد الدول الأجنبية بيد أنني كنت مع أحد الرفاق مما جعلني أدق كفاً بكف متعجباً إلا أنه من حسن الحظ أننا تذكرنا أن الفندق كان يقع على قناة أو ترعة ولذا تلمسنا طريقنا إلى الفندق مسترشدين بهذه الترعة.

تلقى الشاب كلماته كما يتلقى الظمآن قطرة من الماء العذب، فقال متلقياً طاقة النجاة ببراعة وقد تورد وجهه من البهجة وعذوبة الحلم: لم أكن أحمل للأمر هماً لو كنت في مدينة أجنبية فبوسع المرء حينئذٍ أن يذهب إلى قنصل بلده لينشله من أزمته المؤيسة بيد أنه يجد نفسه منبوذاً كالحذاء البالي عندما ينزلق إلى ورطة مشابهة في بلده. فإن لم يجد شخصاً تقياً نقياً يحنو عليه حنو المرضعات على الفطيم ويقرضه مالاً، فلن يجد لنفسه بُداً من الاستلقاء على ظهره فوق الحشائش تظله النجوم اليواقظ ويلسع الهواء البارد عظامه حتى يشعشع أول ضوء للنهار. بيد أن فؤادي يهتز سروراً لإحساسي أنك تعتقد أن حكايتي فوق منال الشبهات.

ندت عنه العبارة الأخيرة بحماس تألقت له عيناه كأنما ليؤكد لنفسه أن جثة الأمل في كرم من يجالسه وشهامته لم تفارقها الحياة بعد. فقال جورتسباي بلهجة ناطقة بالملل وهو يحدّ بصره ليركز انتباهه: إنني لا أعد روايتك بطبيعة الحال عسيرة على تصور الخيال وإن كان يتعاورها ضعف وركاكة ألمسهما في عجزك عن إبراز دليل صدقك.. أعني قطعة الصابون.

ارتفع رأس الشاب والتوى عنقه إلى الوراء مثل حية وتحسست يده جيب معطفه ثم انتتر واقفاً في عصبية وهو يغالب غيظه وسخطه. تمتم وغضبه يتراكم كزوبعة في الأفق: لابد أنني قد أضعتها!

شبك جورتسباي يديه في بعضهما وقال: أن تضل طريقك إلى الفندق وتضيع قطعة من الصابون في أصيل نفس اليوم أمر ينم على إهمال متعمد يعز على التصديق.

بدا كما لو أن الشاب يستجيب إلى الصوت الباطني الذي يستصرخه ملهوفاً على الفرار. دار على عقبيه بغتة ليعود من حيث أتى في خطو سريع وقد ارتفع رأسه كبرياء وصلفاً ولاح الضجر في عينيه.

غطى جورتسباي وجهه براحتيه متفكراً ثم غمغم: يا لها من خيبة مريرة! إن خروجه لابتياع قطعة من الصابون كان الجانب الوحيد في روايته الذي يتماشى مع

الواقع والمنطق الصحيح بيد أن هذا الجانب هو الذي تردى به إلى قاع هاوية الخيبة الجامعة.

فلو كان حقاً ممن يتصيدون الزبائن بعيونهم الخبيرة بعد استعراض كافة الاحتمالات لما غفل عن حمل قطعة من الصابون معه ينم غلافها المورد اللامع عن بكارتها، وعندها كنت سأقر له بالعبقرية في رمي الشباك حول الفريسة ليوقعها في المصيدة إذ أن توهج الذهن بالتفرد والعبقرية في هذا الصنف من البشر يتجلى في اتخاذ الحيطة لكل احتمال.

ما إن نهض جورتسباي ليغادر المكان بعد أن تنبه من غفوته السارحة حتى فرت من فيه صيحة دهشة.

لمح لفافة صغيرة بيضاوية ذات غلاف مورد لامع ملقاة إلى جانب رجل الأريكة. اشتعل باهتمام داهم حاد بعد أن تكشفت له الحقيقة. صدقت عزيمته على قرار. فها هو الدليل على صدق روايته... دليل لا يخطئه النظر. فهذه القطعة من الصابون سقطت من جيب معطف الشاب عندما انحط فوق الأريكة كمن يتردى إلى قعر هاوية من القنوط الدائم. غادر موقفه وقد لاح على وجهه آي الاهتمام الشديد وراح يحث خطاه في الممشى الذي التف في غلالة سمراء من شفق الغروب، وهو يحد من بصره لتكاثف العتمة محملقاً في مرتادي المتنزه الذين تراءوا لعينيه أشباحاً، بحثاً عن شبح شاب يرتدي معطفاً خفيفاً. كان على وشك أن يستنيم إلى قبضة اليأس عندما عثر بصره بالشاب واقفاً على الطوار وقد نمت هيئته على ما كان يساوره من حيرة حيال الطريق الذي ينبغي أن يسلكه: أيخوض في ظلمة المتنزه أم يقصد رأساً أرصفة نايستبريدج التي تغص بالسابلة والمتسكعين. عندما ناداه جورتسباي التفت بعنف نحو الصوت كأنما يستجيب للسعة سوط، ثم تصدى له في نفور متصلب كالديك المتحفز.

دنا منه جورتسباي وخاطبه والبشر يتألق في وجهه وقد مد له يده بقطعة الصابون: لابد أنها سقطت من جيب معطفك عندما جلست إلى جانبي على الأريكة. لقد رأيتها ملقاة على الأرض بعد ذهابك. يجب أن تغفر لي شكي في صدق نواياك لقد تسرعت في الحكم وحسبتك تحيك أكذوبة ماكرة بيد أنني لا أجد لنفسي بُداً من الامتثال لحكم قطعة الصابون أيرضيك جنيه على سبيل القرض؟

دس الشاب القطعة الفضية من ذات الجنيه في جيبه أطلق جورتسباي تنهدة ارتياح بعد أن تبددت الهواجس والوساوس التي كانت تحتدم برأسه كفقاعات الماء المغلي.

سلم بطاقته إلى الشاب قائلاً وهو يبتسم وقد شاع الارتياح في وجهه: ها هي بطاقتي تحمل عنواني. بوسعك أن ترد علىّ القرض في أي يوم من أيام هذا الأسبوع وها هي قطعة الصابون، لا تضيعها ثانية، فقد برهنت أنها صديق وفي لك.

فقال الشاب من فم جاف: من حسن الحظ أنك عثرت عليها. ازدرد ريقه بصعوبة ثم غمغم بأصوات مغضوضة وهو يتذاوب خجلاً وامتناناً ثم هرول مسرعاً صوب نايستبريدج دون تبصر ولا احتراس.

هز جورتسباي رأسه في أسف وغمغم لنفسه: يا له من شاب مسكين لقد لمحت دمعة حبيسة في عينيه وهو يخاطبني بصوت متهدج متخلخل النبرات بيد أنني لا أعجب لانهياره الفجائي كأنه بنيان يتقوض، فالفرحة التي أحس بها تعز على التصديق والتأمل، فبدا لي كغريق تصادف قدماه صخرة ناتئة وقد أشفى على الغرق. ولذا فإنني أعد هذا الموقف درساً لي يحذرني من الإذعان للعقل والمنطق كلية مستخبراً الشواهد والأدلة في إصدار الأحكام.

عاد جورتسباي من حيث أتى في خطو ثقيل، وعندما مر بالأريكة التي شهدت هذا اللقاء الدرامي رأى كهلاً ينكت الأرض بطرف عصاه، ثم ينحني متقوساً وهو يجري على الأرض تحت الأريكة وحولها بنظرات مستطلعة.عرف وجهه على الضوء الخافت المتسرب من ألق النجوم. كان الكهل نفسه الذي جلس الشاب في الموضع الذي أخلاه إلى جانبه على الأريكة.

سأله: أتبحث عن شيء فقدته؟

- نعم يا سيدي. قطعة من الصابون.

المتأمل الحالم

بقلم: هتكور هيو مونرو (ساكي)

حل موسم التخفيضات، فصدقت عزيمة مؤسسة والبيرجس وتتلبينك التجارية على قرار بخفض أسعارها لمدة أسبوع أن يصيب تجارتها الكساد، مثلها في ذلك مثل أرشدوقة ألمت وعكة برد خفيفة بها فراحت تسعل حتى انخلعت ضلوعها موهمة نفسها أن ما بها مرض شديد وذلك لتفشي مرض الأنفلونزا بين سكان الحي الذي تقطنه.

وهو نفس السبب الذي جعل السيدة أدلا تشمبينج تصمم على أن تقوم بزيارة المؤسسة المبجلة لا يمنعها من ذلك ما كان يداخلها من شعور بالثقة والزهو والخيلاء لاتني معه عن الإشادة بعظمتها والهزء بسلوك السيدات اللاتي يتلقين خبر إقامة أوكازيون كما يتلقى الظمآن قطرة من الماء العذب.

قالت ملتمسة العذر لنفسها وهي تبسط أصابعها وتقبضها في حركات تشنجية: إنني لست مولعة بالشراء أثناء موسم التخفيضات إلا أنني لا أستطيع الانفكاك من سحر المساومات ومراقبة النساء وهن يساومن البائعين دون رحمة مما يشي لا ريب بثراء تيارات الضعف البشري التي تتلاطم تحت سطح نهر شخصيتها القوية الذي ينساب بثقة وهدوء.

دعت السيدة تشمبينج الابن الأصغر لأختها إلى اصطحابها إلى الحانوت التجاري الشهير في اليوم الأول من الأوكازيون معتلة بحاجتها إلى الصحبة فحسب. وكي تضمن موافقته وعدته بأن تغديه أثناء جولتهما الشرائية وتصطحبه إلى أحد دور السينما بعد الفراغ من مهمة التبضع.

كان قلبها يخفق بالأمل في أن سيبريان الذي لم يجاوز الثامنة عشرة من عمره لم يبلغ بعد تلك المرحلة من النضج التي يترفع معها على حمل حقائب تحوي المشتريات ترهقه ثقلاً.

كتبت إليه خطاباً يحوي جملة واحدة: انتظرني أمام قسم بيع الزهور في الساعة الحادية عشرة.

كان سيبريان فتى تغلب عليه الوداعة والهدوء وتعكس عيناه نظرة وديعة حالمة تقطر طهارة وسذاجة وغرابة عن هذا العالم. وكثيراً ما كانت تلوح في عينيه نظرة شاردة تغيب بصاحبها عما حوله. كان ينظر إلى الأشياء التي لا تثير دهشة الآخرين بعينين تنطقان بالدهشة والذهول، مغدقاً عليها هالة من السحر والروعة، فعيناه عينا شاعر أو سمسار عقارات. كان مظهره يفصح عن اهتمام بالغ بالأناقة،

فكان عظيم العناية بتسوية رباط الرقبة وإحكام وضع القبعة على رأسه قبل الخروج وهو ما يعزوه كتاب الروايات إلى متطلبات مرحلة المراهقة الباكرة وتأثير الأم الأرمل. وكان يرجل شعره الذي لا يفارق في هيئته الأعشاب البحرية بنعومته وهشاشته إلى الوراء والذي ينشق وسطه عن مفرق أبيض بادي الغرابة والشذوذ. جاء في الوقت المحدد سافر الرأس. استرقت إليه الخالة نظرات فاحصة تسبر بها شعره الأسود المفروق من الوسط بعناية لا مزيد عليها وهي تتساءل بصوت تنم نبراته عن غيظ مكتوم: أين قبعتك؟

فأجاب بنبرة ودودة وشبه ابتسامة تلوح في عينيه: لم أحضرها معي.

لاحت في عينيها دهشة لم تخل من انزعاج وتضاربت في رأسها التخمينات. تساءلت كأنما تهامس نفسها وقد استقرت في عينيها نظرة احتجاج مكفهرة: هل اعتراك نوع من الخبل؟

عجبت غاية العجب لابتلاء بيت أختها الصغيرة بهذا الفتي الذي تبدو عليه علامات البلاهة التي لا يخطئها النظر، كما ناوشتها مخاوف من رفض هذا الشاب الذي مسه شيء من الجنون حمل حقائبها المثقلة بالمشتريات التي تنتوي ابتياعها.

قال وهو يرنو إليها بعينين دهشتين تشع منهما نظرة حالمة: إني لا أرتدي قبعة لأنها قمينة بأن تكدر عليّ صفوي أثناء التسوق. أعني أنك سوف يركبك الحرج والضيق لا ريب عندما تصادفين شخصاً تصلك به أسباب التعارف وتجدين نفسك مضطرة إلى خلع القبعة وإزجاء التحية له بابتسامة وتحنية من رأسك في حين أن حقائب المشتريات التي تحملينها باليد الأخرى ترهقانك ثقلاً. فإذا كنت لا ترتدين قبعة فلن تكوني مضطرة بطبيعة الحال إلى خلعها من آنٍ لآن.

ابتل صدر السيدة تشمبينج ارتياحاً إلى قوله، فندت عن أعصابها المتوترة المكلومة آهة ارتياح. دارت فرحتها بقناع من الجد وقالت وهي تختلس النظر إلى شعره اللامع ينشق وسطه عن ذلك المفرق العجيب: بيد أن ارتدائها ينم عن التحلي بالسلوك القويم ومراعاة التقاليد والأعراف التي درجنا عليها.

وما إن نطقت بهذه العبارة حتى شمرت عن ساعد الكد وتوثبت بهمة صلبة للكفاح، وقد توهجت في قلبها شعلة الحماس فسحبته من يده صوب قسم مفارش المائدة، وهي تهتف قائلة وقد اشتعلت باهتمام داهم حاد: فلنبدأ بهذا القسم فإنني أود معاينة بعض المفارش.

سارت على مهل في خيلاء يتبعها على الأثر ابن أختها، وقد قلقت في عينيه نظرة زائغة ذاهلة. إذ أنه رغم انتمائه إلى جيل تجذبه معارض المحال التجارية كأنه ربة بيت فإن تفحص خالته المفارش باهتمام حاد وإرادة فولاذية دون أن تصدق نيتها على ابتياعها انتصب أمام عينيه لغزاً ينبهم مغزاه على الإدراك.

بسطت مفرشاً مطوياً ثم رفعته لأعلى باسطة ذراعيها وهي تتفحصه بنظرة ثاقبة وقد ضيقت عينيها لتحد بصرها تسكرها نشوة متحفزة للمغامرة ودق أبواب المجهول كمخبر أخذته الحماسة واشتد به الانفعال وهو يقرأ رسالة حررها زعماء الطلبة بمداد سري ثم ندت عن منكبها حركة استهانة وهي تلقى بالمفرش فوق الطاولة ودارت إلى عقبيها بغتة ثم خطت خطواً سريعاً مباغتاً إلى قسم القوارير ثم وقفت والتفتت صوبه وقالت له برقة خليقة بجذبه إلى رأيها سلفاً: لقد طلبت مني ميليسنث أن أبتاع لها زوجاً من القوارير الزهيدة الثمن، كما أنني أود شراء سلطانية للسلاطة، وبوسعي ابتياع مفارش المائدة فيما بعد.

نشطت لعملها بهمة عالية. انكبت على فحص عدد من القوارير والآنية والسلطانيات يخطئه الحصر حتى قر منها العزم على شراء سبع فازات لزهور الأقحوان قالت بصوت متهدج وأنفاس لاهثة مدافعة عن قرارها ما وسعها الدفاع: رغم أن أحداً لا يستهويه اقتناء هذا النوع من الفازات الآن إلا أنني سوف أهبها بعض الأصدقاء كهدايا لمناسبة عيد الكريسماس القادم.

ابتاعت بعد ذلك مظلتين شمسيتين بثمن بخس. عطفت نحوه رأسها وقالت وهي ترنو إليه بعينين تتألقان بنور ظافر: إحدى هاتين المظلتين سوف تنطوي على نفع غير منكور لروث كولسون إبان إقامتها في شبه جزيرة الملايو التي تحرق حرارة الشمس في سمائها الرؤوس، ويشتعل أديم أرضها بنارها المحرقة، كما أنني أود أن أبتاع لها ورق خطابات، والذي لن يشغل لرقته البالغة مساحة كبيرة في حقائبها عندما تحزمها استعداداً للرحيل عائدة إلى بلادها.

توثبت للانقضاض على الفرصة السانحة بجراءة لا تعرف الحدود، وابتاعت أكداساً هائلة من هذا النوع من الورق الرخيص الثمن. سولت لها نفسها أيضاً شراء بعض مظروفات الخطابات رغم أنه ينطوي على مغامرة غير مأمونة العواقب قياساً إلى ما اتسمت به من حكمة وذكاء عند شراء ورق الخطابات عندما طلبت من ابن أختها المشورة، متسائلة برقة متوددة: هل تعتقد يا عزيزي أن روث تحب الورق الأزرق أم الرمادي؟

فقال الشاب الذي لم يلتق بهذه المرأة قط ولم يصله بها سبب من أسباب التعارف، في يقين من لا تخالجه خلجة شك واحدة: الورق الرمادي؟

فقال البائع وهو يهز رأسه في أسف: كلا ليس لدي ورقاً رمادي اللون بدرجاته المتفاوتة. لكن لدي ورق رسائل ذا درجتين من اللون الأخضر ودرجة واحدة من اللون الرمادي.

ألقت نظرة فاحصة على ورق الرسائل بدرجات ألوانه المختلفة، ثم اختارت ورقاً أزرق.

ثم قالت استجابة لخاطرة طارئة: فلنذهب الآن لتناول طعام الغداء.

وقع كلامها من نفس الشاب موقعاً حسناً، أحس إحساس الحران يهب عليه نسيم بارد معطر بالياسمين. كان قد نال منه التعب والقهر كل منال. كانت عصافير بطنه تصيح وأحس بمعدته تقرقر. كما كان ريقه يتحلب على قطعة من كعكة السمك، وفطيرة من اللحم المفروم.

شقا بالمناكب طريقاً إلى قسم المرطبات وسط زحام شديد. جلس تحدق به هالة من الوداعة والهدوء والوقار بيد أن الرزانة التي كانت تتجلى في عينيه لم تحل بينه وبين الانقضاض على الطعام مثل نسر جائع كأنما يشهد العشاء الأخير، فأكل حتى استوفى المزاج. وبعد أن احتسى فنجان قهوته بتلذذ، واستروحت نفسه شيئاً من الطمأنينة والسلام إذا بصوت خالته يتهادى إلى سمعه رقيقاً ناعماً وهي تخاطبه بلهجة ودودة أن يقبل أن تبتاع له قبعة من قسم أغطية الرأس الذي يعرض فضلات المخازن للبيع بأسعار جد زهيدة يسيل لها لعاب الزبائن.

فأجاب بصوت رقيق مفعمة نبراته بالرجاء: بيد أنني يا خالتي لست بحاجة إلى قبعة جديدة، فعدد قبعاتي المعلقة بالمشجب في بيتي يخطئه الحصر. هذا إلى تجشم عناء تسوية ما يتشعث من شعري وإصلاح ما يختلط من شعرات رأسي كلما ارتديت إحدى القبعات على سبيل التجربة.

قالت فيما بينها وبين نفسها: ها هي الأمور تتعقد، وها هو الأمل في أن يصلح من شأنه ويقوّم سلوكه يذبل ويذوى. لقد بت على يقين أنه مبتلى بجنون صريح أو ربما حصل له لطف كما لا يسعني أن أكتم وساوسي حيال ما أقدم عليه هذا الفتى من إيداع مشترياتنا حجرة الأمانات قبل أن نفرغ من جولتنا الشرائية.

قال الشاب مدافعاً عن وجهته في النظر ما وسعه الدفاع: لقد أطلقنا المدى لمشترياتنا كما أننا لسنا بحاجة إلى استردادها حتى تفرغين من التبضع.

خامره شك في اقتناعها برجاحة عقله إذ أنه عندما اختطف من وجهها نظرة سريعة ليمتحن أثر كلامه فيه رأي خيبة الأمل ترتسم على صفحته.

لا يجدر بالمرء أن يعجب لخيبة أملها، فإن حرمان الزبون من حمل مشترياته أثناء تجواله في جنبات المحل يكدر عليه صفوه ويطفئ نور السرور في عينيه.

هبطا الأدراج إلى الطابق الأرضي. تجمع التصميم في زاويتي فيها وهي تخاطبه قائلة: سوف أتجه رأساً إلى قسم مفارش المائدة، وليس هناك داع لأن تصحبني إلى هناك.

أحس سيبريان كأن يداً تخنق كبرياءه خنقاً، وارتسم في وجهه الاحتجاج، فقالت: لا تحزن ولا تبتئس. انتظرني في قسم أدوات المائدة فقد تذكرت تواً أني في

حاجة إلى أداة معدنية لفض سدادة زجاجات الخمر يوليها المرء ثقته التامة ويركن إليها.

وعندما اتخذت السيدة تشمبينج بعد ذلك سبيلها رأساً إلى قسم أدوات المائدة لم تجده في انتظارها بيد أنها لم يساورها هاجس قلق لذوبانه المحتمل وسط هذا الزحام الشديد بيد أنها بعد ربع الساعة عثر بصرها به في قسم المصنوعات الجلدية وقد وقف وراء كومة هائلة من الحقائب الجلدية تكاد تواريه عن الأنظار. شقت طريقها بين الأجسام بصعوبة ولكن بعزم لا يقهر، يصك سمعها عجيج وضجيج وجلبة وصياح. ركبها الحرج والضيق عندما شاهدت سيدة تشق بمنكبيها طريقاً وسط هذا الأمواج المتلاطمة من البشر حتى بلغت موقف سيبريان متسائلة وهي تتمالك أنفاسها المضطربة عن ثمن حقيبة يد استهوتها بجمالها ورخص ثمنها حتى قبل الخفض المقرر. تخضب خدا السيدة تشمبينج باحمرار طبيعي غلب احمرهما الصناعي الخفيف. قالت فيما بينها وبين نفسها باستياء متجهمة الوجه: إن المرأة تحسبه بائعاً بالمحل لأنه سافر الرأس، وهو أمر لا يستثير الدهشة، بل ربما لا تكون هذه السيدة أول من ارتكب مثل هذا الخطأ غير المقصود الذي لا يعوزه ما يبرره، ومن ثم يتيسر انتحال الأعذار له.

بيد أن هذا التفسير اعترضته عقبة لم ترد لها بحسبان، إذ أن سيبريان لم يتولاه الارتباك أو يركبه الحرج كما كانت تتوقع، بل أجاب بصوت خافت متئد متزن النبرات وهو يطالع بطاقة السعر المربوطة بالحقيبة: جلد فقمة أسود اللون.. ثلاثة وأربعون شلناً.. بعد نسبة الخفض المقررة تباع بثمانية وعشرين.. بيد أننا في حقيقة الأمر نسعى للتخلص من هذا الصنف من الحقائب ببيعها بسعر مغرٍ .. ستة وعشرون شلناً فقط... ولذا فإنها تلقى سوقاً نافقة مما ينبئ بنفادها في ساعات قلائل..

فقالت السيدة بلهجة يتنازعها الابتهاج وتقطع الأنفاس وهي تلتقط بأنامل مرتجفة من شدة الانفعال قطعاً فضية من ذوات الشلنات من كيس نقودها: سوف أشتريها..

تساءل بهدوء: هل ستأخذينها دون تغليف؟ إنني آسف.. عليك أن تنتظري بضع دقائق.. فأنت ترين الزحام الشديد الذي يحدق بي..

فقالت السيدة بعجلة ولهوجة وهي تختطف من يده الكنز النفيس ثم وهي تعد النقود في يده: لا تحمل للأمر هماً سوف آخذها دون تغليف.

تصلبت السيدة تشمبينج في وقفتها وتجمدت أسارير وجهها، ثم خيل إليها بعد لحظات أن الأرض تدور تحت قدميها. سارع نفر من المتسكعين في جنبات المحل وقد تفتت قلوبهم رثاء لها إلى نجدتها. خرجت إلى الطريق وهي تعتمد بيدها على منكب أحدهم كشمعة لم يبق منها إلا عقب فتيلة ارتسم الإشفاق على وجه أحد المارة

انبرى قائلاً بلهجة أسيفة: إنني لا أعجب للصفرة الشديدة التي تعلو وجهها وإحساسها بالخور والغثيان فالمحل يكتظ بالرواد الذين يتلكأون طويلاً في جنباته رغم شعورهم بوطأة الحر الذي يزهق الأنفاس ويجفف الحلوق ويحيلها حطباً يابساً.

وبعد أن استردت وعيها بفضل الهواء البارد الذي لفحها في الخارج فرطب جبينها الساخن، عادت إلى المحل في شبه ظلام من القلق واليأس رأته مندساً في زحمة حشد من الخلق يزدحمون على قسم بيع الكتب وهم يتدافعون بالمناكب وقد استكنت في عينيه نفس النظرة المنداحة في متاهات الخيال والتي تقطر طهارة وسذاجة وغرابة عن هذا العالم، وإن ازدادت عمقاً ورسوخاً. كان قد فرغ لتوه من أحد الزبائن وهو كاهن عجوز اشترى منه كتابين.

شجرة السفرجل

بقلم: هكتور هيو مونرو (ساكي)

كاشفت فيرا عمتها بيرلي كيمبل الحقيقة عارية عن كل تخفيف. قالت لها: إنني عائدة تواً من زيارة للسيدة بتسي مللن العجوز. يخيل إلى أن الزمان قد عبس لها إذ أنها عجزت عن سداد إيجارة الكوخ الذي تقطنه حتى اجتمع عليها خمسة عشر أسبوعاً كما صارحتني بقلة حيلتها وعجزها التام عن دفع الإيجار.

فقالت العمة بصوت ينم عن الضجر: إن بتسي مللن تواجه دوماً صعوبات تتعلق بالإيجار. بيد أنه ما تنفغر له الأفواه من عجب أنه كلما ازداد عدد الأصدقاء الذين يمدون لها يد المعونة ذبلت شعلة حماسها لدفع ما تأخر من الإيجار ولذا فإنني سوف أقبض دونها يدي من الآن فصاعداً يخيل إلى أنها لن تجد لنفسها بُداً من الانتقال إلى كوخ أصغر وأرخص. ثمة أكواخ عديدة في الجانب الآخر من القرية معروضة للإيجار بنصف المبلغ الذي تدفعه أو من المفترض إنها تدفعه الآن. وقد نصحت لها في العام الفائت بإخلاء الكوخ الذي تقطنه الآن.

تساءلت فيرا بعجلة ولهوجة مستوهبة تأييدها: ولكنها لن تنعم بحديقة غناء وارفة الظلال كالتي تحيط بكوخها الحالي، والتي تنتثر في جنباتها الأشجار بوفرة سخية وأخص بالذكر هنا شجرة السفرجل المثقلة بالثمار والتي تشع هالة من حسن ورواء. هذا إلى أن السيدة بتسي يخلو من الاستغلال قلبها فهي لا تستخدم ثمارها في صنع المربى، مما يقطع بقوة شخصيتها وصلابة أخلاقها يخيل إلى أن اضطرارها إلى هجران هذه الحديقة سوف يرسب الحزن في أعماق روحها لحد الرثاء.

اشتد الغيظ بعمتها فهتفت متجهمة بنبرة صارمة: عندما يكون المرء في معية الشباب وغلوائه مثلك أي في السادسة عشرة فإن جميع الأمور التي تتنافر مع طبعه أو لا توافق مزاجه يعدها أموراً مستحيلة تعز على التأمل والتفكير. وتتبدى له الدنيا غشاء من الألغاز.

ولذا فإنني أعتقد أن انتقال بتسي مللن إلى كوخ أصغر حجماً ليس أمراً ممكناً فحسب بل يستثير الإعجاب أيضاً إذ أن الكوخ يتسع أيما اتساع على ما تملكه من أثاث قليل.

خيم الصمت حتى شقته فيرا قائلة بنبرة العالم ببواطن الأمور: بيد أننا عندما نتخذ من القيمة المادية معياراً للتقيم فسوف تتكشف لنا حقيقة تعز على التصديق أو التأمل، إذ يحوي كوخ بتسي بين جنباته أشياء ليس لها مثيل في جميع منازل القرية.

ضيقت العمة عينيها امتعاضاً وقالت بسخط واضح: محض هراء! فقد باعت منذ زمن طويل جميع الآنية الصينية النفيسة التي كانت بحوزتها. بثت فيرا حنقها في نبرات صوتها، وهي تقول عابسة: إنني لا أعني الأشياء التي تمتلكها بيد أنك بطبيعة الحال تجهلين ما أعلم والذي لا أعتقد أن نفسي تسول لي مكاشفتك به.

ارتفعت حرارة اهتمام العمة لدرجة الغليان، فاشتعل الحماس في عروقها ناراً، واستجمعت حواسها للإصغاء، وقلبها يثب وثباً من شدة الخفقان، ككلب صيد مفعم بالنشاط والحيوية يوقظه من سباته خشخشة مكتومة تنم عن تحركات أقدام فئران فتستثير همته النائمة صاحت:

صارحيني الحقيقة فوراً! واصلت فيرا دون اكتراث لاعتراضها بصوت لا يخلو من رنة الأسف: بوسعي أن أقول لك في يقين من لا تخالجه خلجة شك واحدة أنني لا يجدر بي أن أبيح هذا السر، بيد أنني أخفق غالباً في الاستمساك بالحذر الشديد حتى النهاية فأجدني أترك زمامي لدفعات الهوى وخطرات النفس، فلا أستطيع ضبط لساني كأنما ضاق صدري عن كتمان هذا السر الرهيب.

فقالت السيدة بيرلي كيمبل مدفوعة بشعور الفخار الذي دب في قلبها وهي تميل صلفاً وتيهاً بصلابة أخلاق ابنة أخيها: أنني لست بالمرأة التي تنصح لك بفعل ما لا تودين فعله، لأني أعلم أن الألم سوف يناوش ضميرك. إنني آخر شخص في هذه الدنيا يمكن أن يمحضك هذه النصيحة، فمن ارتاد لِسرَّه موضعًا فقد أشاعه.

تنفست فيرا تنفساً عميقاً كأنما لتخفف عن أعصابها وقالت فيما يشبه الاعتراف بصوت مبحوح متهدج: إن الشخص الأخير الذي يمحضني مثل هذه النصيحة هو الذي يدفعني دائماً إلى معاودة التفكير في الأمر كله ولذا فإني سوف أفعل ما لا أود فعله وأفضي إليك بالسر الذي يكشف النقاب عن اللغز الذي حير الألباب.

تساءلت العمة وهي تغالب إحساسها بالسخط والاستياء الذي كاد يشتعل تحت قبضة إرادتها: ما هي الأشياء التي يحويها كوخ بتسي وتثير اهتمام الناس لدرجة الاشتعال؟ فقالت فيرا بصوت تغلب على نبرته سمة الشكوى: من الظلم أن يقال عني إنني أثرت لغطاً حول هذا الأمر فهذه أول مرة يخون فيها لساني إرادتي. إن الضحك يغلبني على أمري فأجدني أسترسل أحياناً ضاحكة حتى تدمع عيناي عندما أطالع أعمدة الصحف وهي تختنق بمشكلتها المستعصية رغم حملات الشرطة المستمرة على أوكار المجرمين والتنقيب في كل زاوية داخل البلاد وخارجها في حين أن هذا الكوخ الصغير الذي يغلب عليه الهدوء الشامل ويجلله الوقار والبراءة تنطوي جدرانه على حل لهذا اللغز الذي حير الألباب.

صرخ الذهول في عيني العمة ثم تساءلت وهي تضبط انفعالها: هل تشيرين إلى لغز اختفاء لوحة اللوفر أو تلك اللوحة التي تصور امرأة تنفرج شفتاها الباهتتان عن ابتسامة حيية والتي اختفت أيضاً منذ حوالي عامين؟

فقالت فيرا بلهجة دب فيها الحماس: كلا ليس هذا ما أعني... ورغم ذلك فالأشياء التي اختفت لا تقل أهمية عن تلك اللوحة كما أنها استقطبت حديث الناس بما يحيط بملابسات اختفائها من غلالة كثيفة من الغموض فاجتاحت مستنقع حياتهم الراكدة حتى تفجر عن ينابيع حارة... ما أعنيه هو أن الأمر برمته فضيحة انفجرت فدوت طبولها في أركان البلاد.

تساءلت العمة بريق جاف: هل تعنين لوحات دبلن؟. أحنت فيرا رأسها دلالة الإيجاب وقالت بصوت يكاد ينحبس في حلقها: المجموعة كلها غير منقوصة.. ضربت العمة كفاً بكف وصاحت وقد أخذ منها العجب كل مأخذ: في كوخ بيتسي؟!!

ثم واصلت وهي تغالب انفعالاتها التي تموج بإعصار همجي: أن بتسي بطبيعة الحال تجهل قيمة هذه الأشياء.

فقالت فيرا وهي تهز رأسها لتزيح خصلة شعر عن عينيها: إنها تعرف أنها أشياء ثمينة فحسب، ولذا طوت سرها في صدرها وختمت على شفتيها بخاتم الصمت فلم تنطق بكلمة واحدة بيد أني عرفت اتفاقاً هذه الحقيقة في جملتها، كما أنني كشفت النقاب عن لغز انتقال هذه الأشياء إلى الكوخ الذي تقطنه الآن. إن بوسعك مثلي يا عمتي أن تحدسي مشاعر الحيرة التي انتابت من استولوا على هذه اللوحات وتخبطهم وراء المنافذ المسدودة كالفئران الواقعة في المصيدة وهم يسعون للعثور على مكان آمن يخفون فيه الغنيمة بيد أن أحدهم عثر بصره بكوخ بتسي عندما كان يمضي بسيارته في الطريق المحفوف بالمزارع، ووجد فيه ضالته لجو الهدوء والعزلة الذي يتسربل به، ثم عقدت السيدة لامبر اتفاقاً مع بيتسي أتاح لها نقل الأشياء المسروقة إلى داخل الكوخ.

عكست عينا العمة جميع صيغ الدهشة وهي تهتف في ذهول: السيدة لامبر؟!!

فقالت فيرا بصوت خافت متئد متزن النبرات: نعم فأنت تعلمين أن زياراتها لأهل القرية لا تنقطع.

فقالت العمة بلهجة أسيفة: إنني أعلم علم اليقين أنها تحمل لهم في زياراتها الحساء وأقمشة صوفية وكتب الأدب الهادف، بيد أن حملها أشياء مسروقة لإخفائها في أكواخ الفقراء أمر جد مختلف كما لا يسعنا الادعاء أنها كانت تجهل تورطها في هذه الفضيحة، فأي امرئ يتصفح الجرائد ولو بانتباه مشتت لابد أن يعلم بحادثة السرقة ومن ثم يعرف قيمة الأشياء المنهوبة إنني أعجب غاية العجب لانزلاقها في هاوية الجريمة وهي السيدة التي تعد مثالاً للنبل وحسن السمعة ويتردد اسمها على

الألسنة كأنشودة للتقوى والاستقامة. فقالت فيرا وهي تستميت في دفع التهمة عنها: إنني أومن بأنها فوق منال الشبهات بيد أن رغبتها في انتشال أحد الأشخاص من ورطته هي التي أوقعت بها في هذه الورطة عسيرة المخرج إن الأمر الذي يثير الدهشة هو تورط عدد هائل من الأصدقاء والمعارف الذين يستأسرون النفوس بقلوبهم الكبيرة وأخلاقهم القويمة في هذه الجريمة في سعيهم الدؤوب لإغداق حمايتهم على المتورطين الآخرين إنني واثقة أنك سوف تفغرين فاهك دهشة وعجباً عندما أكاشفك بأسماء الأشخاص الذين أوقعوا أنفسهم في ورطة شيبت رؤوسهم، رغم أنني أعتقد أن عشر هذا العدد الهائل كانوا يجهلون أسماء المذنبين الحقيقيين. بيد أنني يراودني شعور عنيف بالذنب لأني قد رميت بك إلى مركز حرج بمكاشفتك بما حدث.

فقالت العمة والغضب يشتعل تحت قبضة إرادتها: إنني واثقة إنك لم توقعيني في ورطة فإنني أنوي هتك سر هؤلاء اللصوص وسوف أبلغ عنهم الشرطة فالسرقة أو إخفاء بضائع مسروقة تعد جريمة لا تغتفر كما لا يخفف من فظاعتها هالة الاحترام والإجلال التي تحدق بمرتكبيها ولذا فسوف أحادث الشرطة هاتفياً كي تقيم للعدل ميزانه قطبت فيرا بلطف قرن بين حاجبيها، وقالت وفي عينيها نظرة عتاب مازجتها ابتسامة جذابة: يا عمتي.. إذا كشفت عن تورط كثبرت في هذه الفضيحة فإن أباه الكاهن المسكين سوف يخنقه اليأس خنقًا ويسكر بنقيع الأحزان حتى يغرق فأنت تعلمين أنه سوف يتلقى الخبر كمصيبة دهماء تطفئ أضواء فرحه، وتخمد أنفاس أمله

هتفت وهي ممزقة بين انفعالاتها المتضاربة: كثبرت؟! هل أنت واثقة من تورطه؟

ثم تأوهت وهي تضع راحتها على يافوخها.

فقالت فيرا بصوت لا يخلو من رنة الأسف: إنني أعلم أنك تتغنين دوماً بصداقته وسجاياه، فهو خطيب بياتريس وزواجه من ابنتك هو معقد أملك وموضع زهوك فأنت ترمقينه بعين الإكبار والمحبة وتستشهدين بكلامه كأنه جوامع الحكم بيد أن فكرة إخفاء المسروقات في كوخ بتسي كانت من بنات أفكاره، كما أنه هو الشخص الذي تطوع بنقلها في سيارته إلى الكوخ، وذلك لأن قلبه رق لصديقه بجينسون في محنته. إنك تعرفين بجينسون بطبيعة الحال الذي ينتمي إلى طائفة الصحابيين (الكويكرز) والذي لا يني عن الدعوة إلى تقليص حجم الأسطول.. بيد أنني نسيت السبب وراء تورطه في هذه المسألة. إن رحيل بتسي عن الكوخ يعد مغامرة محفوفة بالمتاعب غير مأمونة العواقب، فهذه الأشياء تشغل مساحة كبيرة، ولن يكون بوسعها أن ترحل والأعين تتحول إليها كأنها بوصلات تنجذب إلى قطب وهي تلملم مع العمال أمتعتها وتشرف عليهم وهم ينقلون أثاث بيتها إلى مسكنها الجديد فضلاً عما تعلمينه من أشياء ثمينة استودعوها إياها كما أن إصابتها بمرض

يمسكها إلى الفراش شهوراً طوال حتى تسلم الروح سينطوي على عواقب لن تقل في خطورتها عن رحيلها حية كما أن بتسي قالت لي أن أمها عُمرت حتى خرفت ولم تسلم الروح إلا بعد أن طعنت في السن حتى خيل إلى أقاربها وأصدقائها أنها سوف تخلد وتحطم كأس المنون، ولذا فإن بوسعنا أن نركن إلى بقائها على قيد الحياة اثنتي عشرة سنة أخرى إذا راعينا صحتها بعين اليقظة وجنبناها أسباب الكدر ودواعي القلق والاضطراب والتوتر وبعد انقضاء هذه الفترة سنكون قد تدبرنا الأمر في روية وهدوء واستعرضنا كافة الحلول لهذه العقدة المستحكمة..

صمتت فيرا ريثما تغلغل قولها في الأعماق، وقبل أن تهم بمواصلة الحديث الذي يتقطر خبرة ويتفجر حكمة شقت العمة الصمت قائلة بلهجة من يصمم على إنهاء الحديث: سوف أحدث كثبرت على انفراد وأكاشفه بخيبة أملي فيه.. بعد أن تزف ابنتي إليه.

قصت فيرا هذه القصة على صديقة لها تربطها بها أسباب المودة العميقة. قالت لها وعصافير النشوة تزقزق في قلبها: لن تزف إليه قبل عام وها هي بتسي العجوز تنعم بمزايا تعز على التصديق والتأمل بفضل كشفي النقاب عن هذا اللغز، بعد أن تخففت من كافة أعباء الحياة دفعة واحدة فلم تعد عاجزة عن دفع الإيجار لأن أحداً لا يطالبها بالسداد، كما أنها تنعم بالحساء الساخن الذي يقدم لها مرتين في الأسبوع، فضلاً عن سهر عمتي بنفسها على رعايتها عندما تلم وعكة برد خفيفة بها أو استدعاء طبيبها الخاص في الحال لعيادتها حتى عندما تشكو ألماً في مفاصل الأصابع تساءلت الصديقة وهي ترنو إليها بعينين ناطقتين بالدهشة والإعجاب: لكن كيف تسنى لك كشف النقاب عن هذا اللغز؟

تورد وجه فيرا بهجة وتمتمت: أوه كانت عقدة مستحكمة تعز على الحل.

فقالت الصديقة بلهجة لاهثة: إنني أعلم بالطبع أن الأمر ينطوي على لغز يدق على الألباب.. بيد أن ما يحيرني هو كشفك اللثام عن.....

فقاطعتها فيرا قائلة بصراحة مثل ضربة نبوت: تعنين المجوهرات واللوحات المسروقة.. أنها حكاية مختلقة من جذورها ولا أساس لها في الواقع.

لاذت بالصمت هنيهة ثم قالت على سبيل الإيضاح والتفسير: إن ما أعنيه بالعقدة المستحكمة التي تعز على الحل هو قدرة السيدة بتسي على دفع الإيجار المتأخر إذ كانت تواجه ورطة عسيرة المخرج كما إنها كانت ستحزن لفراق شجرة السفرجل الرائعة الحانية حزناً بالغاً وتسيل نفسها حسرات عليها.

مصرع كلبة

بقلم: مارك شورر

في عصر ذلك اليوم الأحد كان يخيم على الشارع هدوء خامل، وبدت البيوت في هذا الشارع الذي تحتشد على جانبيه الأشجار الباسقة، وتتقدمها قطع منسقة من أراضٍ معشوشبة، مسربلة في هدوئها، مسبلة الجفون. خلا الشارع إلا من بعض السابلةً والمتسكعين تحت ظلال الأشجار وبعض الأطفال الذين يلعبون في أرض فضاء مجاورة لعمارة صغيرة. مرقت سيارة قادمة من وراء من جانب سيارتي كالسهم وإذ ذاك لمحت كلبة تندفع صوب الطريق فتصدمها السيارة وتطيح بها كالكرة. لم تتوقف السيارة وعندما توقفت بسيارتي كانت قد غيبها المنعطف. انحنى الرجل الذي كان يسير مع الكلبة فوق الجسم الممدد في قناة الأمطار التي تمتد بحذاء الطوار.

كف الأطفال عن اللعب وتحولوا عن مواقفهم متجهين نحو موقع الحادث. توقف رجل وامرأة كانا يسيران فوق الطوار وراء الرجل العجوز عندما صارا بمحاذاته وجعلا يحملقان فيه هنيهة وقد ركبهما حب استطلاع طارئ ثم تبادلا كلمات قلائل وواصلا السير، وهما يعطفان البصر إليه من فوق منكبيهما من آنٍ لآن. ترجلت من السيارة ومضيت صوبه بيد أنه ندت عنه ردة فعل أثارت حيرتي وبالغ دهشتي.

انحنى الرجل فوق جثة الكلبة وربط المقود الذي كان قابضاً عليه بالطوق الذي يحيط بعنقها. كنت واقفاً جنبه عندما اعتدل واقفاً ولكنه لم ينظر إليّ. كان يشخص ببصره إلى الجثة المنطرحة تحت قدميه وهو يجذب المقود جذبات خفيفة وإن لم تخل من إصرار كما لو كان يخال الكلبة حية بمقدوره حثها على النهوض لتمضي معه. بيد أنه كان من الواضح تماماً أن الجسم الملقى على أديم الشارع فارق الحياة، بدا لي هذا الرجل الذي كان يدنو به الهرم نحو الفناء بخطو دءوب كطفل يوهم نفسه بأن جثة الأمل لم تفارقها الحياة بعد مستنيماً إلى سبات الطمأنينة العذب، وإن كانت تسري في جوارحه في نفس الوقت رعدة خوف لا يجد عليها من سلطان حيال الحقيقة التي تكشفت له ببشاعتها ومرارتها. تولاني شعور بالخوف أن يهوى إلى الأرض وهو يترنح في موقفه فابتدرته قائلاً: اجلس هنا وسوف أقود سيارتي إلى موضع قريب منك لأوصلك إلى حيث تقيم ثم أجلسته على الحاجز الحجري عند المنعطف.

ظل صامتاً كأنما استل لسانه من حلقه وجلس وهو يحصر بصره في الكلبة في شبه حملقة بينما سرت في يده القابضة على المقود رجفة من التوتر العصبي العنيف.

وقف الأطفال الثلاثة في منتصف الشارع وقد انتظموا صفاً واحداً وهم يحملقون في المشهد بعيون تفصح عن دهشة وانزعاج. صاح أحدهم بغتة بصوت حاد: لقد ماتت.. لقد ماتت. ثم جرى بأقصى سرعة عائداً إلى الطوار. لحق به الآخران فوق الطوار. ثم اندفعوا جميعاً إلى منتصف الشارع، ثم عاودوا الركض صوب الطوار وهم يصرخون بصوت ممزق بوحشية الانفعال: لقد ماتت. هممت أن ألوح لهم داعياً إلى التزام الهدوء ولكني ترددت لحظة ثم عدلت عما كنت أهم به عندما أدركت أنه كان غافلاً حتى عما يحدثونه من جلبة وصياح. مضيت عائداً إلى سيارتي لأجنبه مشقة قطع هذه المسافة القصيرة مشياً على الأقدام. مضيت بالسيارة إلى موضعه وترجلت منها ثانية. ربت على منكبه بحنان قائلاً: خبرني عن العون الذي يسعني تقديمه لك، أين تعيش؟ رفع بصره إليّ وقد ترقرقت في جفنيه الدموع ثم خفض عينيه مختلساً إلى الجثة نظرات خاطفة قائلاً وهو يكابد خيبة أمل: لقد ماتت سيسي. ندت عنه في لهجة يشوبها الجزع، كلهجة طفل وقع في ورطة لا يحجد لنفسه منها مخرجًا. سرت رعدة شديدة في أطرافه، وغلبه الاضطراب على أمره، ودهمه قلق غامض يخالطه شعور عميق بالأسى على مصير سيسي. ثم قال وهو يشد على محابس دموعه: لقد ماتت سيسي، كما لو كان مضطراً إلى إعادة هذه العبارة على مسمعه كي يستوعب مغزاها. بادرته قائلاً: سوف أرقد الكلبة على المقعد الخلفي وسوف تجلس جنبي في المقعد الأمامي.

انحنيت فوق الكلبة وهممت أن أفك المقود من الطوق حول عنقها عندما ابتدرني: كلا... اتركه كما هو لا تنزعه.

قلت: كما تريد. أتسمح لي بالقبض على طرفه.

سلمني طرف المقود. التقطت الكلبة من فوق الأرض. كانت كلبة صغيرة من فصيلة كلاب الصيد بشعر ثائر غليظ كأن شعيراته قدت من أسلاك حديدية، ومفرطة في السمنة ولا تشبه الكلاب على وجه التعميم وكما هو الحال مع الحيوانات التي لم تبرد جثتها بعد ثقلت الجثة على يدي. لمحت بقعة من الدم منداحة فوق منخارها.

حملت الجثة إلى داخل السيارة ووضعتها على أرضيتها أمام المقعد الخلفي، بعد أن طويت المقود. راح الرجل العجوز يرقبني من مجلسه فوق الحاجز الحجري عند المنعطف وعندما أغلقت الباب الخلفي للسيارة ومضيت صوبه، بادرني قائلاً: أوصلني بالسيارة إلى شارع ستيفنز رقم 14.

- طيب، دعني أساعدك على ركوب السيارة.

بدا لي كما لو أنه سلم نفسه إلى المقادر، بيد أنه عجز عن النهوض على قدميه، ساعدته على النهوض ومضيت به صوب السيارة أكاد أحمله بين ذراعي. شعرت بمدى ضعفه وتهافته وترنحه تحت وقع الضربة الهائلة التي نفذت إلى صميم قلبه. التففت حول السيارة وجلست إلى جانبه من الباب الآخر أمام عجلة القيادة وأدرت المحرك قائلاً: شارع ستيفنز على مبعدة يسيرة من هنا. سوف أوصلك إلى المنزل في لحظات.

عندما انطلقت بالسيارة عاود الأطفال الثلاثة الذين كانوا يقفون عند منعطف الشارع وقد لفهم هدوء شامل، الصراخ من الأعماق: لقد ماتت! لقد ماتت!

رنا الرجل العجوز إلى مقبض باب السيارة، ثم قال: افتح النافذة إني أكاد اختنق. خفضت زجاج نافذته الجانبية. ثم استطرد: إنني أحس بتوعك وخور إنني أشكو المرض طيلة السنوات الخمس الماضية.

قلت بلهجة أسيفة: أعتقد أنك ستتعافى. أليس كذلك؟ فنحن في طريقنا إلى منزلك.

تنشق جرعات سريعة متتابعة من الهواء كأنما ليملأ رئتيه بأكبر قدر من الهواء النقي ثم قال: إنك ستوصلني إلى المنزل أليس كذلك؟ إنه يقع في شارع ستيفنز".

قلت مطمئناً إياه: لا تحمل هماً حيال هذا الأمر، ثم دفعت السيارة بقدر أكبر من السرعة.

كانت يداه اللتان شبكهما على حجره نظيفتان وينمان على عنايته بهما طالعتني خصلات مشذبة من شعر رأسه الأبيض تحت إطار القبعة السوداء المتجهة حافتها إلى أعلى تعلو وجهاً مجللاً بالوقار ولحية بيضاء مهذبة أما ثيابه فكانت سوداء نظيفة وإن أكلها البلى إلى حدٍ ما من كثرة الاستعمال. كان لا يفارق في هيئته أساتيذ الجامعة المتقاعدين الذين قضوا جل حياتهم في أجواء مهنة تشع وداعة ورقة وبهجة.

قطعنا الشارع حتى آخره ثم ملنا مع شارع ستيفنز. كنت أود لو كان يسكن في شارع آخر، إذ كان شارعاً مهجوراً مسربلاً بالكآبة يخلو من الأشجار، يدهم منظره السائر فيه بالوحشة، تتلاصق على جانبيه المباني السكنية بنوافذها التي تظللها غمامة كآبة. وكان المبنى رقم 14 يشبه المباني الأخرى على جانبي الشارع لحد التماثل.

- هذا هو منزلك. أليس كذلك؟

شخص ببصره إلى المبنى خلل النافذة ولم ينبس. وفيما عدا الرعدة العنيفة التي كانت تسري في جسده والتي لم تخف حدتها فإنه ظل في مكانه لا يبرحه كأنما شد إليه بحبال غلاظ.

أخيراً قال وهو يتمالك أنفاسه المضطربة: إنني أعيش مع زوجة ابني الذي مات وهذه الشقة ليست شقتي بل شقتها.

لاح المبنى في غلالة من الدمامة والتجهم على ضوء أشعة الشمس وهي تميل ميلة العصر، وقد نهض قائماً يكسوه طلاء برونزي يعكس وهج الشمس. كان يتكون من ثلاثة طوابق يشغل كل طابق شقة يسبح جوها في مغيب دائم وتغشيها كآبة ثقيلة ربما بما يقطنها كما خيل إلى آنذاك من أناس عابسين صارمين مهجوري الأمل.

قال في نبرات حزينة: لقد توفى ابني منذ أربع سنوات.

- سوف أصحبك إلى الداخل. ندت عني بلهجة مشبعة بالتودد.

رنا إليّ بعينين لمحت فيهما نظرة خابية تفيض غماً ويرتسم فيهما تساؤل خلت أنني أجبت عنه عندما قلت: سوف أحمل الجثة بين ذراعي إلى الداخل.

ساعدته في مغادرة السيارة ولكنه بدلاً من المضي معي صوب المنزل، وقف متشبثاً بباب السيارة المفتوح، وهو يشخص ببصره إلى الجثة الراقدة على أرض السيارة وقد التف حول عنقها الطوق المثبت به المقود. سألني بصوت مبحوح ونبرات متضعضعة: ماذا سأقول لزوجة ابني؟

فأجبته بلهجة تشجيع: إن سيسي ملكك على أية حال، فصاح بصوت متشك ملئ بالمرارة: كلا ... إنها ملكها ... وقد حذرتني مراراً وتكراراً من فك المقود حول طوقها.. وكان يجدر بي ألا أغفل عن هذا التحذير..

أفلت يده بغتة من باب السيارة، وانحط إعياء على أديم الطوار وقد جعل ينظر إليّ بعينين تلتمعان بنظرة ناطقة بالاستغاثة ويطل منهما ذعر هائل كنظرة طفل يملأه الذعر لعلمه بما ينتظره من عقاب لدى عودته إلى بيته. شخصت ببصري إلى واجهة المبنى الذي كان يخلو من أي زخرف أو زواق، نازعتني نفسي لحظة إلى العدول عن المضي به إلى باب العمارة بيد أنني لم أجد لنفسي بُداً من اصطحابه إلى الداخل.

السكـين

للكاتب: جودا واتن

عندما كان بلينيو ينظر إلى سكين والده كانت الذكريات تنثال على خياله.. ذكريات محزنة تثير في النفس كوامن الشجن وأخرى سعيدة تقطر رقة وعذوبة يهتز لها من أعماقه. كانت هذه السكين من أقوى الروابط التي تربطه بوطنه.

كان هذا الشاب في الثالثة والعشرين من عمره ويحظى بوجه مشرق وقوام رشيق، وكان قد غادر قريته الفقيرة في كلابريا التي تقع في أشد المناطق بؤساً في جنوب إيطاليا ورحل إلى ملبورن حيث عمل في مطبخ في مقهى ميلانو. وكان معظم رجال قريته قد هاجروا إلى الولايات المتحدة وأستراليا نتج عن هذا أن النساء في القرى على وجه التعميم فقن الرجال عداً، واضطرت أمهات كثيرات إلى تربية أطفالهن في غياب الأب الذي اختفى دون أن يقف له على أثر أو خبر بعد أن ذاب في ظلام الغربة في أحد بلدان القارة الجديدة.

بيد أن والد بلينيو الذي توفى في قريته منذ أربعة عشر عاماً خلت كان شديد الارتباط بالأرض فلم تسول له نفسه الابتعاد عن زوجته وتلك القبيلة من الأطفال التي أنجبتها له ولو حتى لمدة أسبوع. كان يشقى ليقيم أود أسرته مرتزقاً من عمله في الطرق والحقول وكان ينفق وقت الفراغ في صنع أدوات ينحتها باستخدام السكين التي ورثها عن جده. كانت هذه السكين من أثمن ممتلكاته وكان يعدها آية على الغنى بالذات ورمزاً للفقر وإن كان فقراً وعوزاً مجللاً بأحاسيس الكبرياء.

كان بلينيو يحمل معه سكين والده دوماً منذ وصوله إلى ملبورن، كما كان يرتدي بنطلون والده الأسود المصنوع من قماش قطني متين. في هذه الأرض الجديدة ثقل عليه الشعور بالوحدة وغشيت قلبه سحابة مظلمة من الوحشة والكآبة وتآكل صدره حسرة على القرية التي لم يفارقها من قبل وجاش صدره بذكريات الصبا التي اهتاجت في قلبه لواعج الشجون وطفقت صورة والده تطارد مخيلته بتصميم عنيف كما لو أن إحساسه الأليم بالاغتراب أثار في نفسه الشعور باليتم. واصل خياله إسراءه في ظلمات الماضي وتمثل لعينيه صورة والده على نحو جلي وهو يجود بأواخر أنفاسه كما لو كانت وفاته حدثت في اليوم السابق وخيل إليه أنه يسمع دوي صرخاته الممزقة بوحشية الألم يجعجع في أذنه: الغوث.. الغوث.. أحضروا الطبيب.. أنقذني يا إلهي بيد أنه لم يكن ثمة طبيب على مبعدة أميال كثيرة ولذا فإنه قبل وصول الطبيب الذي استدعى من مركز المنطقة الطبي كانت صيحاته قد انقلبت حشرجات ولاحت في نظرة عينيه الغائمة أطياف من العالم الآخر. تجلت لمخيلة بلينيو صورة أمه وأختها وهما تغمضان عيني الفقيد ثم شروعهما في الصراخ والعويل حتى شق

صوتهما الجدران وهما يندبان الراحل العزيز ومن حين إلى آخر كانت كل من المرأتين تبرز رأسها من النافذة وهي تصرخ لتعلن حادث الوفاة على الملأ ثم تنسحب إلى داخل الحجرة لتستأنف الصياح والعويل. وانضم إليهما طائفة من نساء القرية وتواصل الصراخ والعويل دون انقطاع لمدة يومين حتى موعد الجنازة. اختزن وعي بلينيو في سراديبه ذكرى وصورة هذا الصراخ والعويل الذي هصر قلبه والتي لم يعد في الإمكان أن تتلاشى وعاشت في أعماقه كذكرى قاتمة موجعة الصدى تستثير في النفس دوماً كوامن الشجن، ويغص حلقه بالحزن والأسى كلما طافت برأسه وتراوده نفسه على البكاء فيبكي بكاءً لا يملك له دفعاً. استثار هذا الحدث الأليم ذكريات شتى سرعان ما كانت تدهمه في سرعة اللهب فانثال على مخيلته صورة أمه مادلينا وهي تخرج إلى العمل يومياً كمساعدة لأحد أقاربها الذي يعمل في مجال البناء وحملها أكياس الرمل وحتى ألواح السُقف المعدنية وعمده. على رأسها إلا أنها رغم تفانيها في العمل الشاق لم تستطع أن تدفع عن أطفالها غائلة الجوع والفقر فكان طعامهم يتكون من خبز أسمر مصنوع من قمح غير منخول في هيئة أرغفة مستديرة ضخمة يزن الواحد منها خمسة أو عشرة أرطال. كان الرغيف يكفيهم أسبوعاً بأكمله أما في أيام العطلات القلائل مثل يوم الاحتفال بالعذراء مريم فكانوا يضيفون إلى الخبز القليل من الثوم ويغمسونه في الزيت ثم يتناولونه مع قرون الفلفل الأسباني الحامية التي تنفث حرارة تكاد تحرق الحلق. كما كانوا يتناولون أحياناً حساءً خفيفاً ولذا كانت ذكريات هذه الأيام تسجع في قلب بلينيو أعذب الألحان بيد أنه لم يحظ بفترة طفولة طويلة فبعد عام من وفاة والده وكان قد بلغ العاشرة شرع في العمل باليومية في المزارع التي تكتنف قرى كالابريا.

عندما شرع بلينيو في التعيش من عرق جبينه أهدته أمه سكين والده التي ظلت راقدة فوق رف مثبت في الحائط منذ وفاته آية على بلوغه مرحلة الرجولة.

كانت سكين صغيرة ذات مقبض من العظم تغطيه طبقة رقيقة من الصدأ الأخضر من أثر العرق الذي كانت تنضح به أيدي من استخدموها، وتتميز بنصل حاد لامع لا يزيد عرضه عن نصف بوصة. استخدم والد بلينيو هذه السكين في نحت المقاعد الخشبية التي كانوا يجلسون عليها والصحاف والشوكات التي كانوا يستخدمونها. ورغم أن الأب لم يكن يسلك نفسه في زمرة الفنانين أو الصُنَّاع المهرة، فإنه افتن في نحت ذلك التمثال الخشبي لأحد القديسين الذي تحلقت حوله هالة من القداسة والذي يقبع في ركن الحجرة التي كانوا يعيشون فيها. كما كان يناوشه طموح كبير لإكمال عمل نحتي مصغر بصورة كاتدرائية باليرمو كان قد بدأه، وكان يتوقع أن يستغرق عشر سنوات. كان بلينيو يزدهيه الخيلاء وهو يعمل في الحقول معلقاً السكين في الحزام الذي يطوق خاصرته كما كان يفعل والده بيد أنه كان يفتقر إلى مهارة والده في نحت الخشب، كما لم يكن يستهويه ممارسة هذا الفن. ولذا كان

يستخدم السكين في قطع السجق والجبن التي كان يتناولها أحياناً بفضل ارتزاقه من العمل في الحقول، وأحياناً كان يستخدمها في قطع الخبز الأسود ضاماً الرغيف إلى صدره محاذراً إصابة ذقنه بجرح بمهارة لا تخطئها العين.

وحيث أنه كان يميل في الأغلب الأعم إلى قطع الخبز بيده مثل أي مسيحي تقي، فإن هذه السكين كانت في المحل الأول بمثابة رمزاً لإحساسه بالرجولة الباكرة مما يسلكه في زمرة رفاقه من العاملين في الحقول بغض النظر عن الفارق في السن بينه وبينهم ورغم أن بلينيو كان شاباً تغلب عليه الوداعة والهدوء فإنه لم يول أسباب السرور والانشراح في القرية ظهره. فقد كان من أفضل راقصي القرية بما اتسم به أداؤه من رشاقة احترافية رغم مشيته المتثاقلة المضطربة التي اكتسبها من السير حافي القدمين سوى في أيام الأحاد التي كان يمضي فيها منتعلاً حذاءه. فلم يتخلف قط عن مشاركة الشباب رقصهم على موسيقى مزمار القربة وهم يرقصون أزواجاً، قوام كل زوج فتى وفتاة، ويدور كل منهما حول الآخر وقد تلامست الأنامل آية على أفانين الغزل في جو يظله الانسجام والتآلف، أو يرقصان متشابكي الأيدي وهما يدوران بشدة كنحلة خشبية قذف بها طفل بعد أن لف طرف الخيط حولها، فراحت تدور على سنها فوق بلاط الإفريز دوراناً شديداً.

كان نساء القرية يشغفن به أيما شغف لما يبديه من رشاقة احترافية ونشوة الحماس التي تأخذه عند الرقص.

كان شاباً بهي الطلعة تتحلق حوله هالة من الجاذبية بشعره الأسود الجعد وعينيه السوداوين اللتين ثبتت في أعماقهما نظرة حزينة تستدر الإشفاق والتي كانت فيما يبدو سمة موروثة عن رجال ونساء في عائلته فاضت عيونهم بالدموع وانغرز سن الألم والمعاناة المسموم في أعماقهم حتى نهايته. كما كانت هذه النظرة الحزينة تعكس ما استقر بأعماقه من حزن مقيم بيد أنه كان نوعاً من الحزن الرقيق عمق من إحساس النساء بسحر جماله. فمن وراء الخمر المسدلة على الوجوه كانت نظراتهن تنطق بالشغف والإعجاب بيد أن هؤلاء النسوة وقد رحل عنهن رجالهن إلى بلاد بعيدة أو فقدوا في ساحات المعارك بشمال أفريقيا وأوروبا إلى غير رجعة جعلن يسترقن إليه نظرات فاحصة يسبرن بها جسمه الفارع الرشيق وقد أعفين أنفسهن من عناء مداراة ما يعتمل في صدورهن من رغبات جامحة كما طفقن يتحدثن عن رغباتهن المكبوتة بصراحة تدعو إلى الدهشة. وعندما كن يلمحن بلينيو يقطع ساحة القرية وهو يسير بقدمين متثاقلتين كن يشخصن إليه بعيونهن السوداوات التي تشع ببريق الرغبة ويتهامسن فيما بينهن عما يحدسن فيه من مفاتن تتوارى عن العيون. بيد أن متع الحياة ومسراتها التي كان بلينيو يطيب بها نفساً لم تكن سوى لحظات من الهناء ينتزعها من مخلب الدهر مثله في ذلك مثل عداء خارت قواه وتقطعت منه الأنفاس فيتوقف هنيهة ليسترد أنفاسه ويبل ريقه فهذه المسرات لم تثبط عزيمته أو

حماسه للعمل بل دفعته إلى مضاعفة جهوده وجعل طوال الوقت يحترق توقاً لوجبة طيبة من الطعام تسكت صياح عصافير بطنه وعويله من نهشة معدته وهو يبيت ليلة بعد ليلة يتلوى من عض أنياب الجوع. هذا الجوع الدائم الذي أحس أنه يرصده كأنما لا يجد فريسة سواه كان يملأ نفسه حنقاً فيتمطى سخطه حتى يشمل كل شيء مثله في ذلك مثل حيوانات القرية: الحمار الذي هزل كأنه خارج من مجاعة وهو ينهق نهيقاً متواصلاً ينطق بالجزع والألم، والغنمة التي تنقب عن الحشائش في الأرض القاحلة الجدباء وقد انطبع البغضاء في أساريرها ونوازعها وتطايرت من نظراتها جمرات الحقد تحرق الدنيا من حولها. اعتاد بلينيو التوجه مع رفاقه في العمل في الحقول إلى أحد الحانات لاحتساء النبيذ والانخراط في أحد ألعاب الورق التي كانت بمثابة المرحلة الأولى في مباراة في الخطابة. كانت هذه الخطب التي يلقيها اللاعبون والتي لا ضابط لها تكشف عن فيض هائل من مشاعر الحقد والكراهية وأحاسيس المرارة التي يكنها بعضهم لبعض وكثيراً ما كانت تفضي إلى اشتباكهم في خناقة حامية تتبادل أثناءها قذائف من السباب والضربات الصادقة. إلا أن بلينيو لم تسول له نفسه قط أن يشهر سكين والده في وجه أحد من اللاعبين إذ أن هذه السكين لم تكن مقرونة في ذهنه بالعنف حتى عندما كانت عيناه تلفظان أوار الغيظ الكظيم وتتطاير منهما نذر الموت فهو لم يكن يعد هذه السكين سلاحاً للدفاع أو الهجوم إلا أن هذا لم يحل بينه وبين إشهارها دفاعاً عن شرفه أو شرف العائلة خاصة إذا تعرضت سمعة نساء العائلة لخوض الخائضين. عندما عاد بلينيو إلى بيته ذات يوم بعد الانتهاء من عمله في الحقول لمح أمه تقف على عتبة باب المطبخ وهي تلوح له بخطاب أرسله لها أحد أقاربها المقيم في بلاد أستراليا النائية وحيث أنها كانت تجهل القراءة فقد مضت بالخطاب إلى قسيس القرية الذي قرأه عليها وقد جمعت انتباهها في أذنها فحفظته عن ظهر قلب. كان هذا الرجل الذي تربطها به صلة قرابة يعمل مناولاً في مقهى ميلانو ولم يعرض أن يدفع عن بلينيو ثمن تذكرة الباخرة إلى أستراليا فحسب بل وعد أيضاً بتوفير وظيفة طيبة له في مطبخ المقهى. وقف بلينيو هنيهة صامتاً كأنما استل لسانه من حلقه طفق أثناءها يتفكر في الطعام الطيب الذي ينتظره بالمطبخ وقد استرسلت عيناه في نظرة شاردة غائبة مسترسلاً في أحلام يقظته وما تعده به من مسرات رحلة بحرية عبر نصف الكرة الأرضية تعز على التصديق وإن نغص عليه صفوة شبح الانفصال المخيف عن أسرته التي كانت تستعر لها في قلبه عاطفة صادقة. قال وعواطف متضاربة تتنازع قلبه:

كلا لن أرحل إلى أستراليا. ما الذي يدعوني إلى السفر؟ سوف أعيش هنا. فقالت أمه وقد غشيت عينيها نظرة جادة: إنك بسفرك هذا سوف تمد لنا يد المعونة. استطردت شارحة بأنه سوف يكون بمقدوره أن يرسل إليهم نقوداً بفضل ما يتلقى من أجر طيب كما أنها سوف تدخر له جزءاً من هذه النقود تهيئة لليوم الذي يعود فيه إلى القرية للزواج من العروس التي سوف تنتقيها له.

لم يكن بوسعه أن ينكر ما ينطوي عليه قولها من حكمة فلم يكن أمامه – فيما يبدو – مثله في ذلك مثل معظم رجال القرية إن أراد أن يدفع عن نفسه غائلة الجوع والفقر ويقيم أود أسرته الجائعة سوى طريق واحد هو الهجرة.

وهكذا جاء يوم الفراق الذي شهد بلينيو متوجهاً إلى محطة القطار في موكب قوامه أمه وإخوته وأخواته وأقاربه وأصدقاء الأسرة من أهل القرية ليستقل القطار إلى نابولي حيث يركب سفينة تبحر به إلى أستراليا. سار بلينيو وأمه في الطليعة. سارت الأم مرفوعة الرأس ثابتة الأقدام منتصبة القامة في وقار ورزانة من اعتاد السير حاملاً أثقالاً تتوازن فوق رأسه. كانت ترتدي بلوزة سوداء من القطن وجونلة سوداء تضيق عند الخاصرة وتتسع تدريجياً متخذة هيئة الناقوس، وتنتعل حذاء برقبة من المطاط وتتلفع بشال يحدق بوجهها الذي يشع وقاراً في طيات متتابعة وتستقر أطرافه منطرحة على كتفيها وهو شال ورثته عن إحدى نساء عائلتها.

كثيراً ما كانت ذكريات الوداع تعاود بلينيو وهو مستلق في فراشه في مسكنه الجديد فتنهش قلبه حتى يسح حنيناً دافقاً. كان المسكن يقع في عمارة من طابقين ذات واجهة واحدة تطل على الشارع في شمال ملبورن يتكون من أربع حجرات ويكتظ بما لا يقل عن عشرين شاباً إيطالياً آخرين وفدوا حديثاً إلى أستراليا مثل بلينيو. جاء معظم هؤلاء الشبان من جنوب إيطاليا وتوثقت المودة بينهم في بلاد الغربة كما كانوا يبدون الود لبلينيو ويتحدثون إليه كما لو كانت تصلهم به أسباب التعارف طوال حياتهم بيد أنه عجز عن مجاذبتهم أطراف الحديث والاندماج فيهم فقد جاءوا من قرى أخرى وكانوا في نظره بمثابة أجانب، كانت قريته جل عالمه وكان حديثه ينصب كلية على مشاعره وأحاسيسه إزاء هذا العالم المحدود بيد أنه كان يرهف السمع في اهتمام لما يدور بينهم من أحاديث مدفوعاً بالرغبة في معرفة أحوال هذا العالم الجديد. كانوا يتحدثون عن عملهم والمستقبل الذي – فيما يبدو – كانوا يرمقونه بعين الاستبشار إلا أنه كان يعلم أنهم كانوا يتجرعون مثله الوحدة حتى الثمالة إذ لم يكن عدد النساء الإيطاليات في ملبورن كبيراً كما أن نساء أستراليا كن يترفعن على مصادقة الأجانب هذا إلى أن رجال أستراليا كانوا يأنفون من مصادقة الأجانب وكان يداخلهم أحياناً سخط شامل عليهم فيجعلون يلهبونهم بنظرات الحنق والغضب كلما صادفوهم في مقهى أو طريق. ولذا فإن الوافدين الجدد كانوا مضطرين إلى العيش في نطاق الذات، والتقهقر إلى قوقعة العزلة وحتى الكنيسة التي اصطحبوا بلينيو إليها كان مقيمو الشعائر فيها قساوسة إيطاليين وكان معظم المترددين عليها للصلاة من الإيطاليين أيضاً.

كان بلينيو يبدو حتى بعد انقضاء ثلاثة شهور من العمل في المطبخ بمقهى ميلانو مثالاً صادقاً لليأس والضياع إذ حل به تشاؤم غريب وتلاشت همته وفتر حماسه، وطغت عليه موجة يأس خانق أغرقت آماله بغير رحمة. كان هناك بالطبع

قريبه الذي كان يمحصه الود في صفاء خالص ولكنه بدا له كما لو كان ينتمي إلى عالم آخر لطول عهده بالحياة في أستراليا الذي جاوز السنوات الخمس. جاش صدر بلينيو بحنين موجع لأسرته وأصدقائه وأولئك النسوة في القرية اللاتي كن يغدقن عليه فيضاً من اهتمامهن، وباشر حياته الجديدة وقد دب في روحه هزال اليأس والضعف موطناً النفس على الرضا بحياته كما هي ومستسلماً للمقادر إلا أنه لم يكن يكره عمله إذ كان من اليسر في غاية رغم انكبابه عليه ساعات طوال على مدار ستة أيام في الأسبوع. كان ينظف أرضية المطبخ ويغسل الصحاف وأحياناً كان يستخدم يديه الغليظتين في أداء مهام أقل عناء مثل تقشير الخضراوات وقطعها إلى شرائح صغيرة كما أنه لم ينعم بمثل هذا الإحساس بالشبع من قبل وأحياناً كان يستخرج سكين والده من جيبه دون وعي منه ويقطع بها الخبز واللحم بيد أن هذه العادة سقطت في هوة النسيان مع اكتساب عادة استخدام أدوات المائدة المعدنية.

كان بلينيو بعد أن يفرغ من عمله كل ليلة يقطع الطريق من مقهى ميلانو إلى مسكنه في شمال ملبورن مشياً على الأقدام. لم يكن تسول له نفسه إنفاق النقود في دفع ثمن تذكرة الباص فإن هذا كان يعني خصم عدة ليرات من النقود التي يرسلها إلى أمه.

وأحياناً كان يعرج في طريقه إلى مسكنه إلى أحد مشارب القهوة سبرسو التي تقع خلف الأسواق مدفوعاً بالرغبة في العثور على أحد مواطني منطقته في الجنوب وعندما يصادفه حظ طيب ويعثر بصره بأحدهم كان يجلس يتحدث إليه لساعات طوال بعد أن يأمر بفنجال من القهوة بيد أنه في معظم الأحوال كان يرتطم بالخيبة عندما لا يعثر على ضالته بين الجلوس في المشرب فيدور على عقبيه بسرعة مغادراً المحل ليواصل السير إلى مسكنه.

رأى بلينيو ذات ليلة أمام مشرب لبن فتاة جميلة تتألق الحيوية في نظرات عينيها اللامعتين فجذبت انتباهه من النظرة الأولى. كانت تقف في الممشى مع جماعة من الشبان والشواب وهم يدقون الأرض بأقدامهم على إيقاع موسيقى تنبعث من آلة حدس بلينيو أنها تدار بعملات معدنية تُدرس في فتحة بأحد جوانبها وقد انخرطوا في الدردشة والجدال بحماس هائل.

رآها بلينيو بعد ذلك مرات عديدة وهي تقف أمام مشرب اللبن مع نفس الجماعة من الشبان والشواب. ذات مرة رآها تعطف بصرها من فوق كتفها وترنو إليه باهتمام. تألقت عيناه بنور ظافر وجعل يتصفحها بنظرات جريئة من عينين تعكسان شعاع النهم كما لو كان لا يزال في موطنه. قال أحد رفقائها وقد أخرجه الغضب عن وعيه: لا تدعوا المهاجر الوقح يفلت من أيديكم. كان تومي لولر، الصديق الذي هدر فوه بهذه الكلمات وقد ارتسم الوعيد في تجعدات عبوسته، شاباً في التاسعة عشرة طويل القامة قوي الجسم جميل الوجه يرتدي قميصاً مفتوح الطوق

على طراز القمصان التي يرتديها الشبان بجزر هاواي ومعطفاً ذا درجتين متفاوتتين من نفس اللون يكاد يصل إلى ركبتيه. وما إن صكت أذن الفتاة مافيس كير هذه الكلمات الغاضبة حتى فرت منها ضحكة وجعلت تنظر إلى بلينيو لا تزيح عنه البصر حتى غيبه المنعطف المؤدي إلى الشارع الذي يقطنه.

واصل تومي قائلاً وهو يتلظى بالحقد الدفين: إن هؤلاء المهاجرين يثيرون في نفسي الكراهية لحد الغثيان شدّ ما أمقتهم!.

كان رفقاؤه يدركون تمام الإدراك ما يكنه للمهاجرين من كراهة عميقة. وهو بهذا الجانب الانفعالي في شخصيته كان يشابه أباه الذي كان يعمل معه في متجر فيكتوريا. كان الأب لا يني عن الهزء بهم قائلاً إنهم شحاذون يلتقطون الطعام من أكوام القمامة وأنهم إبان فترة الكساد الاقتصادي استولوا على مزارع الجنود المنخرطين في القتال في ميادين المعارك، أما في المدن فقد استولوا على وظائف الأستراليين. كان تومي يستشهد بكلام والده كأنه جوامع الحكم بيد أنه حتى ظهور بلينيو في حياته وتكديره صفوه لم يكن يتناول بلسان الهزء والسخرية أي مهاجر إيطالي بعينه بل كان الإيطاليون على وجه التعميم هدفاً يفرخ فيه حنقه من المهاجرين من إيطاليا أو أسبانيا أو بلاد أمريكا الجنوبية بيد أنه قر منه العزم فور أن وقع بصره على بلينيو في تلك الليلة أن يخصه بلب كراهيته وشراسته، ذلك الشاب عميق السمرة الذي يعتمر غطاء رأس ويرتدي بنطلوناً من قماش قطني متين أسود اللون. عندما لمح تومي ذات ليلة مافيس تختلس إلى بلينيو نظرة جانبية خاطفة تنفث لعباً وشيطنة انفجر في غضب قاذفاً بلينيو بسيل من السباب المقذع إلا أن بلينيو لم يفقه كلمة واحدة. عطف أحد الشبان رأسه إلى الفتاة وهو يبتسم ابتسامة عريضة قائلاً إنك تهيمين بهذا المهاجر هياماً يا مافيس، من الواضح أنه شغفك حباً.

فأجابت بلهجة مثيرة لحقد الحاسدين: إنه لا يفتقر إلى براعة القسمات أو رشاقة القوام. قرأ تومي في عينيها شيئاً أثاره. لم يكن تومي يعد مافيس إلى حين ظهور بلينيو كمنافس محتمل، ضمن ممتلكاته الخاصة بل كان ينظر إليها على أنها إحدى الفتيات اللاتي يسع أي من الشبان الاشتباك في علاقة غرامية معها لأنها لم تنتقل إلى ملكية أحد بعينه. بيد أنه انبعثت في صدره في تلك الليلة رغبة مباغتة ملحة حادة في الاستئثار بمافيس دون شريك. أثارت هذه الغيرة حب استطلاع رفاقه وتبادلت اللحاظ نظرات ساخرة تشي بالخبث والسرور. قال أحدهم في لهجة لا تخلو من تهكم واضح: لم أتخيل قط أن بمقدور أحد هؤلاء المهاجرين أن يسلبك فتاة من فتياتك.. أطلقت مافيس ضحكة مجلجلة والتمعت في عيني تومي نظرة مغيظة محنقة وهو يقول بوجه مخطوف من الحقد: إذا تفوهت بكلمة أخرى سوف أصرعك بلكمة واحدة كان يجيد استخدام قبضة يده بفضل مشاركته في المباريات التمهيدية للملاكمة في استاد غرب ملبورن.

تراجع الشاب في جفول وقد سرت في جسمه قشعريرة الخوف قائلاً: إنني لم أقصد التهكم بك بل نازعتني نفسي إلى الممازحة فحسب.

عندما مر بلينيو بمشرب اللبن في المرة التالية وشخص ببصره إلى مافيس اتجه تومي صوبه مباشرة كما لو كان مدفوعاً برغبة عاتية في الحفاظ على سلطانه وقد وثب الافتراس من سحنته:

ما الذي تهدف إليه يا أحمق؟

فأجاب بلينيو وهو يهز رأسه وقد حارت في عينيه نظرة قلقة وجعل يقلب فيما حوله طرفاً حائراً: إنني لا أفهم كلمة واحدة.

قال تومي متهكماً إن هذا ما تدعونه جميعاً بيد أنكم تفهمون جيداً ما تودون فهمه.

انقبض صدر بلينيو وغشيته سحب المخاوف. تراجع في جفول وصدرت عنه حركة تشي برغبته في التراجع. بيد أن تومي لم يكن يرغب في ذهابه بعد. أطاح تومي بحركة سريعة من يده بغطاء رأس بلينيو الذي طار كالقذيفة واستقر في مجرى لمياه الأمطار يمتد بمحاذاة الممشى وعندما انحنى بلينيو منقباً عن غطاء رأسه انطلقت الضحكات من حناجر الشبان والشواب الذين جعلوا يطلقون صيحات التشجيع والاستحسان لتومي الذي وقف يحدج بلينيو بنظرة تنز مقتاً واحتقاراً. التقط بلينيو غطاء رأسه من قناة المياه التي تكتل الطين في قعرها ثم مرق من جانب تومي كالهارب وشرع يعدو مبتعدًا مشيعاً بضحكاتهم التي تجاوبت جنبات شارع فيكتوريا رنينها. غدا هذا الحادث لأيام عدة نادرة تلوكها ألسن هؤلاء الشبان والشواب.

قال أحدهم "كان مشهداً مضحكاً كالسيرك".

وعلق الآخر قائلاً: لقد فر كالريح الهوج.

قال تومي بعينين تلتمعان بشماتة صارخة بصوت مليء بالثقة: إن هؤلاء المهاجرين جبناء. عزم بلينيو على أن يتحامى من المرور أمام مشرب اللبن. أمضه شعور أليم بالخزي والعار فلم يستطع أن يكاشف أحداً بهذه التجربة المهينة، إلا أنه كان بوسعه أن يحدس مما كان يتسقطه من أحاديث تدور بين الطهاة وبين العاملين الآخرين بالمطبخ مصيره عندما يصادف هؤلاء الشبان مرة أخرى فالشاب الذي أطاح بغطاء رأسه سوف يضربه، وإذا سقط على الأرض، فإن جميع الشبان الآخرين سوف ينهالون عليه ركلاً في بطنه ووجهه كان يعلم أن مثل هذه الركلات تفضي أحياناً إلى الموت ورغم أنه لم يكن يكترث لمصيره على الإطلاق ويرى كل معنى لحياته وهو يتلاشى في النسيان والضياع فإنه كان يجفل من فكرة الموت في بلاد الغربة وأحياناً كان يتساءل في سره وقلبه يخفق منذعراً عما إذا كان امرؤ قد استنزل عليه لعنات بالموت والخراب. بيد أنه لم يكن يني عن التفكير فيما أصابه من

أذى ومهانة فيتقلص وجهه ألماً وخزياً كلما تخايل لعينيه وجه تومي لولر وهو يختلس منه نظرات ملتهبة بالحقد والكراهية والحنق.

أحس بطعنة نجلاء تصيب كبرياءه في الصميم ورغم ما كان يتسم به من دماثة طبع واستسلام للمقادر فإنه كان يشعر بالدم يتصاعد إلى رأسه وبغيظ خانق يطحن نفسه. غادر بلينيو مقهى ميلانو في يوم السبت التالي متأخراً على غير عادته ورغم أنه كان ينتوي تحامي المرور أمام مشرب اللبن فإنه اعتزم زيارة مشرب اسبرسو. فلعل الحظ يتقدمه تلك الليلة ويصادف إنساناً يجاذبه أطراف الحديث. كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة عندما مضى يقطع الشارع بخطواته الثقيلة. كانت السينما قد أغلقت أبوابها بعد أن لفظت آخر مرتاديها، وخيم على الشارع هدوء خامل وبدا كالمقفر وإن لم يخل من بعض الأشخاص الذين تراءت أشباحهم يقفون أزواجاً يتهامسون في ظلال الأسواق أو في جماعات صغيرة من الرجال منخرطين في دردشة عند منعطف الشارع. شرع بلينيو يغذ السير ويحث الخطى دون أن يلتفت يمنة أو يسرة. صك سمعه بغتة ضحكات ترامت من بعد، كان للضحكات رنين عال استثار ذكرى قاتمة موجعة الصدى في نفسه بدا الشارع خاشعاً تحت ستار الظلام الرقيق ولاحت الدور والحوانيت نائمة على ضوء المصابيح المتباعدة. لمح تومي ومافيس ورفقاءهما وهم يعرجون من شارع جانبي إلى الشارع الرئيسي عائدين من باحة للرقص المشترك ويمضون صوبه من الجهة المقابلة. صاح تومي بغتة: ها هو المهاجر قادم نحونا.

وضعت مافيس يدها على ذراعه لتهدهد من ثائرته وهي تخاطبه قائلة "لا تشتبك في شجار معه، دعه يمر في سلام" تحدد موقفه من المهاجر في ضوء لهجتها الناطقة بالتوسل والاستعطاف التي جاءت كنفط على لهب. اهتاجه الغيظ وتساءل محنقاً غاضباً:

- أتخشين عليه الأذى.

فقال شاب آخر ممازحاً: لا تُحملي للأمر همًا سوف ترين مشهداً مسلياً.

انحرفوا في طريقهم إلى الممشى ومضوا صوبه رأساً واعترضوا سبيله. تكوم الشاب الإيطالي مقرفصاً بحركة عكسية، وجعل يعطف بصره من آنٍ لآن من فوق كتفه إلى الوراء كأنما ينشد الغوث من أحد المارة في الطريق الذي بدا في تلك الساعة مقفراً لحد الذعر والفزع، وقد سرت في نفسه قشعريرة رعب وركبته رغبة في الهرب.

صاح أحدهم بتومي قائلاً: لا تدع الجبان يهرب.

وصاح آخر: لا تدعه يفر هذه المرة!

تصلب تومي في مواجهة بلينيو في تحدٍ وقد وجه رأسه صوبه قائلاً بلهجة تنم عن الوعيد:

- ألا تزال تتسكع في الطرقات أيها المهاجر القذر!

مد بلينيو يديه إلى الأمام في ذعر كأنما يبعد تومي عنه اتقاء لشره وجعل يجيل في المكان نظرة زائغة يشيع منها اليأس مردداً نظره بين جدار المصنع المشيد من الطوب القائم إلى يساره ووجوه الشبان والشواب التي تطالعه بنظرات تبرق بأضواء فرح شرير.

صاح أحدهم: اجعل منه عبرة لكل معتبر.

وهتف آخر مشجعاً: نعم لا تدعه يفلت من يدك هذه المرة.

- سوف أسوي الحساب معه.

ندت عن فم تومي المعوج قليلاً إلى أحد جانبيه. وقد أنذرت أساريره المتقبضة بشر مستطير. جلست الفتيات القرفصاء لصق الجدار وهن يمنين أنفسهن بمشاهدة منظر مسل يصقلها ويجلوها من الصدأ الذي لحق بها. وفجأة رفع تومي قبضته في الهواء وهوى بها على صدغ بلينيو بجامع قوته. تراجع بلينيو وهو يترنح متطوحاً وقد غاض الدم في وجهه فترك صفحته شاحبة كوجوه الموتى. رغم إحساسه بالألم فقد سيطر على هوج انفعالاته ونادى إرادته لجمع شتات فكره خيل إليه أن إنسان لو ذبح لعانى مثل الإحساس الذي يعانيه في موقفه. قر منه العزم على الاستماتة في الذود عن كرامته الذبيحة ففي قريته لا يسع أحداً سوى والديه أن يلطمه على وجهه دون أن يصيب كرامته وكبرياءه بجرح، ولذا عندما رأى تومي يتقدم نحوه ملوحاً بقبضته مهدداً اندلعت في باطنه ثورة مباغتة وتسلط الجنون تماماً على وعيه. صاح مرعداً كالوحوش الضارية ببضع كلمات بالإيطالية، ثم استل من جيبه سكين والده الصغيرة الحادة النصل ثم بحركة سريعة من يده لأعلى كلمح البرق وجه إليه طعنة بقوة خارقة. لمح تومي نصل السكين وهو يندفع صوبه كالشهاب وحاول أن يتفادى الطعنة القاتلة بذراعه اليسرى دون جدوى. تهاوى ساقطاً على ظهره مصطدماً بالجدار ودماؤه تسيل دفاقة من موضع الطعنة.

انطلقت من حنجرة إحدى الفتيات صرخة غليظة يائسة وصاح أحد الشبان:

لقد وجه إليه طعنة قاتلة!

"أحضروا عربة الإسعاف" ندت عن تومي وهو يتأوه من الألم وبصوت بدا كما لو كان ينبعث من العالم الآخر.

انزلق جسده فوق أرض الممشى، وإن ظل راكناً إلى الجدار ظهره، وقد اتسعت عيناه في جزع وهما تحملقان في بركة الدماء الآخذة في الاتساع.

اجتمع الشبان والشواب في كومة متلاصقة من الفزع وهم ينظرون إلى بلينيو لا يزيحون عنه الأبصار وقد وقف مكانه لا يبدي حراكاً في وسط الممشى قابضاً بيده على السكين الصغيرة بيد أنهم جميعاً عدا مافيس، تحولوا عن مواقفهم مبتعدين واحداً إثر الآخر حتى ابتلعهم الظلام. قرفصت مافيس بجوار تومي مشبكة ذراعيها على ركبتيها وجعلت تتحدث إليه مفرخة من روعه، وهي تختلس من بلينيو من حين إلى آخر نظرات تنطق بالحيرة والذهول. لم ينظر بلينيو إليها. ساوره شعور بأن جداراً هائلاً قد انقض على حياته فدفنها تحت ركامه، وغشيت قلبه سحابة مظلمة من الوحشة والكآبة. خطا خطوات قلائل إلى الأمام ثم وقف جامداً كالتمثال، صامتاً كالأموات لا يتلفت يمنة ولا يسرة، كأنه في دنيا وحده لا يدري أيمكث في موضعه أم يمضي مبتعداً ظل يحملق بعقل غائب في نصل السكين في يده.

فجأة ترامى من الطريق الرئيسي صياح وصراخ مزق السكون تمزيقاً. وسلطت عربة إسعاف أضواءها الأمامية الحمراء عليهم وهي تصرخ بسرينتها كما شوهدت سيارة شرطة وهي تنعطف بسرعة نحو شارع فكتوريا وتجمع حولهم جمهرة من المشاهدين وهم يتدافعون بالمناكب في حين جعل الواقفون في المقدمة يدفعون الآخرين إلى الوراء في ذعر وفزع.

إنه أحد المهاجرين... مسلح بسكين.

حذار أن يدنو أحدكم منه سوف ينقض عليكم بالسكين.

تبلورت جميع صور الشر في أذهانهم في صورة واحدة السكين.. السكين.. إنه يحمل سكيناً.

رولد دال

ROALD DAHL

رغم أن والدي رولد دال كانا نرويجيين، إلا أنه ولد (عام 1916) ونشأ في جنوب ويلز، كما كتب جميع إبداعاته في فن القصة القصيرة باللغة الإنجليزية.

كان يعمل قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية في عام 1939 في شركة شل العالمية للبترول في لندن، ثم نقل للعمل في فرعها الآخر بدار السلام. لحق في بداية الحرب بالقوات الجوية الملكية البريطانية ونشط لأداء المهام الموكل بها إليه في الصحراء الليبية واليونان وسوريا.

وفي عام 1942 إبان إقامته في واشنطون كمساعد للملحق العسكري شرع في كتابة القصة القصيرة.

وتتسم أعماله القصصية بروح الفكاهة والدعابة، وإن لم تخل من أحداث في نهاياتها تبغت القارئ، وتشيع مزيجاً في نفسه من الدهشة والإعجاب.

نُشرت قصصه القصيرة في كتب نذكر من بينها "ثمة إنسان يشابهك" Someone Like You و "لا تكل ولا تمل من طبع قبلاتك على الشفاه" kiss kiss.

بطل العالم

للكاتب: رولد دال ***ROALD DAHL***

ظللنا طيلة نهار ذلك اليوم أثناء الفترات التي تتخلل خدمة الزبائن مكبين على إعداد الزبيب، وقد انحنينا متقوسين على سطح الخوان في حجرة المكتب بمحطة البنزين التي امتلكها. أضحت حبات الزبيب مستديرة في امتلاء وضخامة ويعلوها طراوة ورخاوة بعد أن غمسناها في الماء لفترة طويلة، بحيث أنك إذا شققت عن باطنها بموسي حلاقة كانت المادة الجيلاتينية داخلها تبرز في سهولة ويسر وفقاً لهواك، بيد أننا كنا نتصدى لمهمة إعداد مائة وستة وتسعين حبة، ولذا فإنه قبل أن نفرغ من مهمتنا كان المغيب قد اقترب نصف مسدل الجفنين، وشرعت الشمس في سحب أهدابها من هامات البيوت ورؤوس الأشجار. ندت عن كلود صيحة وهو يفرك يديه بشدة ويفرقع بأصابعه مع نغم موسيقاه الباطنة: ألا تبدو في غاية من الروعة؟ ما الوقت الآن يا جوردون؟

فقلت: لقد جاوزت الخامسة بقليل.

لاحت خلال النافذة عربة تبطئ من سيرها حتى توقفت أمام مضخات البنزين وبداخلها سيدة أمام المقود، وحوالي ثمانية أطفال محشورين في المقعد الخلفي منهمكين في التهام الآيس كريم. اقتعد كلود كرسياً على كثب من الباب وابتدرني قائلاً: ينبغي أن ننطلق في الحال فالمهمة بأكملها سوف تواجه الفشل الذريع كما تعلم ما لم نصل إلى هناك قبل غروب الشمس. كان من القلق في غاية ولاح أمام عيني كما لو كان جالساً على مشواة، وطفقت عيناه تومضان بتلك النظرة التي كنت ألمحها دوماً فيهما قبل انطلاق الكلاب في السباق التي كان يراهن عليها.

غادرنا المكتب معاً وقام كلود بإمداد سيارة المرأة بما تحتاجه من وقود. انطلقت السيارة الهرمة المتهلهلة مقرقرة ترتج أوصالها وتصطك مبتعدة، ورغم ذلك ظل كلود متسمراً في موقفه في منتصف ممر السيارات، وقد علت وجهه أمارات القلق الشديد، وهو يضيق عينيه ناظراً إلى الشمس التي لاحت فوق صف الأشجار المنغرسة بطول حافة قمة الطرف البعيد من الوادي وقد غدا قرصها في حجم قبضة يد إنسان وهو يهبط وديعاً أليفاً في الشفق وقد استلت منه روح الشباب الفائر.

لذا بادرته قائلاً: لك ما تشاء أغلق المحطة.

طفق كلود من فوره ينتقل من مضخة إلى مضخة، وهو يحكم تثبيت طرف كل خرطوم في حامله باستخدام قفل صغير ثم قال: أنصحك بخلع هذا البلوفر الأصفر.

- لماذا؟

- لأنك تحت ضوء القمر هناك سوف تومض مثل فنار في حلكة الليل البهيم.
فقلت بلهجة مطمئنة:

سوف تسير الأمور على ما يرام، فلا تخش شيئاً.

فقال: لا أعتقد هذا... اخلعه من فضلك يا جوردون وسوف أعود إليك بعد ثلاث دقائق مضى في خطو سريع وسرعان ما غيبه باب منزله المتنقل على عجلات والقائم فيما وراء محطة التموين. أما أنا فقد دخلت المكتب وبدلت بالبلوفر الأصفر آخر أزرق وعندما خرجت رأيت كلود في بنطلون أسود وسويتر ذي رقبة لونه أخضر غامق ويعلو رأسه طاقية من القماش البني تغطي حافتها عينيه أو تكاد، ولذا بدا لناظري كما لو كان أحد الممثلين في أفلام رعاة البقر وهو يقتحم ستار الحانة المسدل ذا الخيوط الخرزية البيضاء غير هياب ولا وجل بادرته متسائلاً عندما رأيت انتفاخاً عند خصره: ما الذي تخفيه تحت ملابسك؟

رفع طرف السويتر لأعلى وعندها بدا لناظري كيسان أبيضان من القماش القطني الرقيق، وإن كانت سعتهما – كما حدست – مما ينتظمهما من طيات كثيرة– جد هائلة كان قد لفهما بعناية وإحكام حول بطنه قال مجيباً على استفساري: كي نحمل فيهما الغنائم التي سنستولى عليها.

- إنني أفهم ما تعنيه.

- فلنذهب الآن.

- إلا أنني لا أزال أعتقد بأنه ينبغي أن نمضي إلى هناك بالسيارة.

- إن هذا الأمر ينطوي على مخاطرة جسيمة فسوف يرونها في الموضع الذي سنتركها فيه فتثير في نفوس الحرس الريبة.

- لكن المسافة إلى تلك الغابة تزيد عن ثلاثة أميال.

- نعم ولكني أعتقد أنك تدرك إنهم إذا قبضوا علينا فسوف نقضي ستة شهور في السجن.

- إنك لم تخبرني قط بهذا.

- ألم يسبق لي إطلاعك على هذا المصير؟

- لن أذهب معك إلى هناك، إن الأمر لا يستأهل هذه المخاطرة.

- هيا يا جوردون أعتقد أن المشي سوف يذهب عنك هذه الوساوس.

انطلقنا قبل أن يرخي الليل سدوله كان الهدوء يعم الكون بسمائه المرصعة بنتف صغيرة من السحائب الناصعة البياض وقد ثبتت في أماكنها لا تريم، وكان

الوادي يغلفه صمت شامل تسري في جنباته نسمة باردة لطيفة. شرعنا في السير فوق الحشائش التي تحف جانبي الطريق الذي يشق التلال وينتهي إلى أوكسفورد.

سألني كلود مدفوعاً برغبة في الاطمئنان: هل تحمل معك الزبيب؟

- نعم في جيب بنطلوني.

- لقد اطمأن قلبي الآن ثم أضاف: يا للروعة! يا للبهجة المنعشة!

بعد عشر دقائق من المسير، غادرنا الطريق الرئيسي وانحرفنا يساراً إلى طريق ضيق يلتوي وينثني على سفح التل يحفه من الجانبين أسوار نباتية عالية جعلنا نصعد فيه بكل همة وحماس. سألت كلود: كم عدد الحرس هناك فوق التل؟

فأجابني من فوره: ثلاثة.

رمي كلود بسيجارته التي لم ينته من تدخين نصفها إلى الأرض وبعد ذلك بدقيقة أشعل أخرى قائلاً: إن هذه المهمة سوف تعد علامة فارقة في تاريخ السطو على الصيد بيد أنني أحذرك من أن تطلع أي مخلوق على ما اصطنعناه من وسيلة لتحقيق غرضنا. هل تستوعب ما أقول؟ ثم أضاف قائلاً: إن ما يدفعني إلى التفوه بهذا التحذير هو أنه إذا ما تسرب نبأ هذه الوسيلة المستحدثة في الصيد مثل رائحة يتعذر كتمانها، فسوف نفاجأ ذات يوم بكل أحمق يقطن هذه المنطقة يتوسل بهذه الطريقة، وبذا لن يكون هناك ثمة دراج واحد يتاح لنا صيده. فقلت بلهجة مقتضبة لأبدد وساوسه وهواجسه: لن أطلع أحدًا على هذا السر.

استطرد قائلاً: يجدر بك أن يزدهيك الخيلاء وتتيه عجباً وسروراً بما حققته. فعلى مدى قرون طوال خلت عكف رجال من ذوي العبقرية المتوهجة على دراسة هذه المشكلة بيد أن أحداً منهم لم يتفتق ذهنه عن حل يحمل في طياته دلائل على قدر ولو ضئيل على سعة الحيلة التي تفتقت عنها عبقريتك الغامرة. لماذا لم تطلعني على هذا الحيلة من قبل؟

لم يسبق لك أن طلبت مني أن أدلي برأيي في هذه المسألة. كانت هذه هي الحقيقة دون زيادة أو نقصان ففي حقيقة الأمر لم يكن كلود قد طرح وحتى اليوم السابق لهذه المهمة فكرة مناقشة موضوع السطو على الصيد في أراضي الآخرين، وهو الموضوع الذي كان يحيطه بجو من السرية والتكتم يعز على التصديق، فكثيراً ما كان يتصادف أن ألمحه في أمسيات الصيف وقد فرغ من عمله، وهو ينسل في هدوء من منزله المتنقل على عجلات وقد أحكم لبس طاقيته على رأسه، وسرعان ما كان يغيبه منعطف الطريق المفضي إلى الغابة وأحياناً كنت أتساءل وأنا أرقبه خلال نافذة المكتب بمحطة تموين السيارات وهو يمضي تجاه الغابة عما ينتوي فعله بالضبط هناك.. عن الحيل والألاعيب التي سوف يمارسها بمفرده تحت الأشجار في ظلام الليل الحالك ولم يكن يعود من مهمته سوى في أحوال جد نادرة إلا بعد انقضاء

الشطر الأكبر من الليل، إلا أنه لم يكن يحمل معه قط عند عودته أياً من الغنائم التي استلبها. بيد أنه ما كان حقاً قميناً بإثارة عظيم دهشتي وحيرتي هو رؤيتي دوماً بعد ظهيرة اليوم التالي طائر دراج أو أرنب بري أو زوج من طيور الحجلان معلق بسقف بيته الكائن خلف محطة تموين السيارات.

إلا أنه في صيف هذا العام نشط إلى العمل في تفانٍ وحماس عجيبين أثارا انتباهي لحد الاشتعال. ففي أثناء الشهرين الماضيين ضاعف من درجة نشاطه إلى الحد الذي كان ينفر معه إلى الغابة أربع ليالٍ متتاليات وأحياناً خمس ليال في الأسبوع الواحد. إلا أن التغير الذي اعتراه لم يقتصر على هذا فحسب إذ خيل إلى أن ثمة تغيراً غامضاً لا تدركه الحواس قد لحق مؤخراً بموقفه إزاء فن السطو على الصيد برمته فقد زاد موقفه عزماً وتصميماً واكتسى بقدر أكبر من السرية مما خلق لدىّ انطباعاً بأن هذه الرياضة المحرمة لم تعد مجرد لعبة تمارس لإشباع رغبة أو هواية، بل غدت حربِاً شعواء يشنها ضد السيد هازل فيكتور رجل المال والعمل الذائع الصيت لأسباب شخصية بحتة. كان السيد هازل يمتلك مصنعاً لإعداد الفطائر والسجق، وكان سلوكه يتسم بقدر من العجرفة والكبر يعز على التصديق وكانت ثروته تعز على الحصر بما تضمنته من أراضٍ تمتد لأميال وأميال على طول كل من جانبي الوادي، كان رجلاً عصامياً تخلو شخصيته من أي موضع للفتنة أو إثارة الإعجاب ويكاد يعدم أياً من الفضائل التي يتحلى بها البشر. كان يكن قدراً غير قليل من الكراهية والبغض لأولئك البشر من ذوي المكانة الاجتماعية المتدنية، وذلك لأنه كان يندرج في زمرتهم فيما سلف من أيام، فكان يذكر لمرآهم خساسة الحال والضعة والشقاء التي كان يتمرغ في أحضانها. كان لحداثة عهده بالثراء والغني، وشدة شعوره بالضعة بين أصدقائه ومعارفه الأغنياء يتحرق دائماً على التعلق بفروعهم العالية. فكان يخرج يتصيد مصطحباً معه كلابه وكبراء القوم وقد تأبط كل منهم بندقيته، ويخطر في الشارع مرتدياً صديريته الفاخرة الغالية الثمن ذات الألوان الفاقعة وكان يمر في كل يوم من أيام الأسبوع عدا يوم العطلة بسيارته الرولز رويس الضخمة السوداء بمحطة تموين السيارات في ذهابه إلى مصنعه وإيابه منه. وعندما كان يمرق بسيارته أمام المحطة كنا نلمح أحياناً وجه ذلك الجزار كما يطلق عليه كلود وراء مقود السيارة تعلوه سيماء الظفر والعظمة وهو وجه يشبه لحم الخنزير في تورده ويتسم بلين وطراوة واحتقان جديرة بمن يتعاطى كميات هائلة من اللحم. ما أود أن أقوله هو أنه في اليوم السابق لخروجنا في هذه المهمة الذي كان يوم أربعاء، فاجأني كلود قائلاً دون أي تمهيد: إنني أنتوي الذهاب إلى غابة هازل للمرة الثانية في هذه الليلة. لماذا لا تأتي معي؟

رفعت حاجبي بدهشة غامرة متسائلاً: من؟ أنا؟. فقال على سبيل التفسير لهذا الطلب العجيب: إن اليوم هو فرصتنا الوحيدة تقريباً هذا العام لاصطياد طيور الدراج

إن موسم الصيد سوف يبدأ السبت القادم وبعد انتهاء الموسم سوف تتشتت هذه الطيور في جميع أنحاء الغابة.. هذا إن كان هناك ثمة طائر من هذه الطيور سوف يقيض له النجاة من نيران البنادق. فسألته: ما السبب وراء هذه الدعوة المفاجئة؟

فأجاب: ليس هناك سبباً محدداً يا جوردون.. ليس هناك سبباً على الإطلاق. فقلت مدفوعاً بحب استطلاع طارئ: أظن أنك تحتفظ ببندقية أو ما شابه مخبئة في مكان ما هناك.

ضيق عينيه امتعاضاً وقال بسخط واضح: بندقية؟ إن أحداً لا يسعه إطلاق النيران على طيور الدراج، ألا تعرف هذا؟ إنك إن ضغطت على زناد بندقية كالتي يلهو بها الأطفال محدثاً فرقعة ولو خافتة وأنت تجوس خلال غابة هازل، فإنك تصبح كمن يستثير السباع من مرابضها، فسوف يهاجمك الحرس في التو واللحظة حتى قبل أن يتلاشى صدى الطلقة التي أطلقتها.

وعندما سألته بلهجة يدب فيها الحماس: ما هي الوسيلة التي تستخدمها في الصيد؟ ندت عنه تنهدة حارة تبعتها فترة صمت طويلة، ثم سألني: هل تعتقد أنه بوسعك عدم إفشاء سر؟

- هذا أمر مؤكد.

- جوردون: إنني لم أطلع أحداً على هذا السر طوال حياتي.

- إن هذا مبعث فخر لي. لما توليه إياي من ثقة، فالأسرار تظفر من صدري بقبر مغلق تستكن فيه وتموت. استدار برأسه ناحيتي وطفق يحدق في وجهي بعينيه الواسعتين قائلاً: إنني الآن على وشك أن أطلعك على أفضل ثلاث طرق في العالم لصيد طائر الدراج في أراضي الآخرين بطبيعة الحال، وحيث إنك سوف تكون رفيقي في هذه الرحلة القصيرة، فإنني سوف أمنحك فرصة اختيار أي من هذه الوسائل الثلاث التي تود أن نطبقها هذه الليلة. فما رأيك؟

- أخشى أن تكون هناك ثمة مشكلة تخفي عن الأعين.

- ليس هناك عقبة خفية. أقسم لك على ذلك.

- إنني أصدقك.

- سوف أكشف لك الآن عن السر الأول.

توقف عن الحديث هنيهة وجذب نفساً عميقاً من سيجارته وهو يضيق عينيه البراقتين ثم مال إلى أذني وهمس بصوتٍ خافت يفيض رقة وعذوبة: طائر الدراج جد مغرم بالزبيب.

تساءلت بلهجة لاهثة كالمستغرب وأنا أزدرد ريقي بصعوبة: الزبيب؟!

- نعم الزبيب العادي، فولعهم بالتهامه يعز على التصديق، وقد اكتشف والدي هذا السر منذ أكثر من أربعين عاماً خلت ناهيك عن اكتشافه جميع الطرق الثلاث لصيد هذا الطائر.

- أظن أنك قلت لي ذات مرة إن والدك كان سكيراً ذائع الصيت.

- ربما كان كذلك ولكنه كان أيضاً أحد فرسان السطو على الصيد، فارس لا يشق له غبار يا جوردون وربما لا أجاوز الحقيقة عندما أدعي أنه كان أعظم لصوص الصيد في تاريخ إنجلتراً، إذ وضع لهذه الرياضة المحرمة القواعد حتى غدت علماً جديراً بالأبحاث التطبيقية.

- هل كان الأمر هكذا حقاً؟

- إنني أعني ما أقول تماماً.

- إنني أصدقك.

ثم واصل قائلاً: هل تعلم أن والدي كان يحتفظ بسرب كامل من الديوك في فناء منزلنا الخلفي بغرض إجراء التجارب عليها فحسب.

تساءلت متعجباً: ديوك؟

- نعم وعندما كان يتفتق ذهنه عن حيلة جديدة لصيد طائر الدراج، كان يجربها على أحد هذه الديوك في البداية وذلك حتى يتأكد من فعاليتها وهذه هي الطريقة التي توصل بها إلى اكتشاف ولع طائر الدراج بالزبيب وهو نفس المنهج الذي يسر له ابتكار طريقة شعرة الحصان.

توقف كلود هنيهة، ثم ألقى بنظرة سريعة وراء منكبه كما لو كان يبغي الاطمئنان إلى خلو المكان من ثمة مخلوق آخر سوانا، ثم واصل: الآن سوف أطلعك على أسلوب تطبيق هذه الطريقة أولاً تنقع بضع حبات من الزبيب بالماء طوال الليل حتى تستعيد حجمها الأصلي وتنتفخ بالعصارة داخلها ثم تأتي بقطعة من شعر الحصان وتقسمها إلى قطع طول كل منها نصف بوصة، ثم تقوم بإمرار كل قطعة من هذه القطع خلال حبة الزبيب عند المنتصف تماماً، بحيث يتدلى من كل جانب من جانبي حبة الزبيب ما طوله ثمن بوصة من الشعر. هل تستوعب ما أقول لك؟

- نعم.

- وعندئذٍ يتقدم الطائر العجوز تجاه هذا الحب المنتثر فوق الأرض وهو يخطر في مشيته تياهاً فخوراً ويلتقم بمنقاره إحدى هذه الحبات بينما تكمن أنت خلف شجرة تترقبه. ما الذي يحدث بعد ذلك؟

أجبته قائلاً: أظن أن الشعرة سوف تنحشر في حلقه.

فأجاب نافد الصبر: هذا أمر واضح يا جوردون لا يدعو إلى العجب، ولكني سوف أطلعك الآن على أمر مثير للدهشة حقاً وهو الأمر الذي اكتشفه بابا. ففي اللحظة التي تنحشر فيها حبة الزبيب في حلقه يعجز الطائر عن الحركة كلية ويغدو مسمراً في مكانه وهو يحرك رقبته لأعلى وأسفل في حركات بلهاء، وما عليك حينئذٍ سوى أن تنسل من مخبئك بهدوء وتتقدم نحوه متقوسًا لتلقفه بين يديك وتضمه إلى صدرك.

- إن ما تقول يعز على التصديق.

- إنني أقسم على صحة ما أقول. ففي اللحظة التي تنحشر فيها الشعرة في حلقه، يصبح بمقدورك أن تطلق رصاصة من بندقية على كثب من أذنه، دون أن تدفعه هذه الطلقة حتى إلى الوثوب من موضعه وهذا الأمر لا يعدو كونه أحد الأمور الصغيرة التي نصادفها في حياتنا ويصعب تفسيرها بيد أن اكتشافها يحتاج إلى امرئ يتوهج ذهنه بالتفرد والعبقرية.

سكت برهة وقد لاحت في عينيه نظرة منداحة في متاهات التذكر تنضح بالإعجاب والفخار بمنجزات أبيه ذلك المكتشف العظيم.

ثم واصل قائلاً: هذه هي الطريقة الأولى أما الطريقة الثانية فهي تفوق حتى الطريقة الأولي يسرًا وبساطة عند التطبيق. ما عليك سوى أن تعمد إلى سنارة صيد وتضع في شصها حبة من الزبيب كطعم ثم تشرع في صيد طيور الدراج تماماً مثلما تصيد السمك فالمطلوب منك أن تمد الخيط على الأرض لمسافة خمسين ياردة تقريباً ثم ترقد على بطنك وسط الشجيرات مترقباً اهتزاز الخيط وعندها تسحبه بصيده الثمين.

قاطعته قائلاً: إنني لا أعتقد أن والدك كان أول من اخترع هذه الطريقة قال كمن صمّ أذنيه عن سماع قولي: إنني أوافقك الرأي أنها وسيلة جد شائعة، ولكني لا أعني بقولي صيادي السمك، إنما أعني أولئك الصيادين الذين لا يسعهم الذهاب إلى شاطئ البحر كلما راودتهم الرغبة في الصيد. فهذه الطريقة كفيلة ببعث قدر من الإثارة التي طال اشتياقهم إليها في نفوسهم.

سألته: وما هي الطريقة الثالثة؟

ندت عنه تنهدة عميقة تشي بفخره وارتياحه: الطريقة الثالثة تنطوي على قدر من الفتنة والجمال يبعثان على الإعجاب، فهي الطريقة الأخيرة التي تفتقت عنها عبقرية والدي الفذة قبل رحيله.

- تعني اكتشافه العظيم الأخير؟

- بالضبط هذا ما أعنيه يا جوردون. وبوسعي أن أتذكر اليوم الذي شهد هذا الكشف. ففي صباح يوم من أيام الآحاد دخل والدي المطبخ فجأة حاملاً بين يديه ديكاً أبيض بالغ الضخامة وهو يقول بهدوء: أعتقد أنني توصلت إلى كشف هائل. كان يعلو وجهه ابتسامة صغيرة، وقد تألقت عيناه ببريق المجد، دلف والدي إلى المطبخ، ووضع الطائر على مائدة المطبخ في منتصفها تماماً قائلاً بصوت يتنازعه الابتهاج وتقطع الأنفاس: يا إلهي أعتقد أن تجاربي قد أثمرت عن كشف طيب هذه المرة!

كانت أمي منهمكة في غسل الآنية والصحاف. رفعت عينيها عن الحوض، ورمته بنظرة مكفهرة اكفهرار السحاب المنذر بالمطر. صاحت به كالزوبعة:

ماذا تعني يا هوراس؟ ارفع هذا الطائر القذر من فوق المنضدة كان يعلو رأس الديك قبعة ورقية صغيرة تبعث على الضحك وتبدو مثل مخروط من الآيس كريم، وقد انقلب رأساً على عقب كان والدي يشير إليه بغير قليل من الفخر قائلاً: أربت على ظهره يا كلود وسوف تجد أنه لن يتزحزح من موضعه بوصة واحدة. شرع الديك يهز رأسه عبثاً كي يطيح بالقبعة الورقية من فوق رأسه ويسدد ساقه صوبها كي يزيحها بصيصته إلا أن القبعة فيما بدا كانت ملتصقة برأس الديك كأنما ألصقت بغراء واصل أبي قائلاً: ليس هناك طائر في أرجاء العالم يسعه الفرار عندما تغطي عينيه ثم شرع في لكز الطائر بإصبعه ودفعه فوق المنضدة دون أن يبدي عن أي ردة فعل ثم قبض بيده على ذراعي، وجذبني إلى الخارج ومضى بي خلال الحقول حتى وصلنا إلى الغابة الضخمة التي تقع على الجانب الآخر من هدنهام والتي كان يملكها دوق بكنجهام، وتمكنا في أقل من ساعتين من اصطياد خمسة من طيور الدراج المكتنزة باللحم إلى حد الإعجاز دون أن نتجشم عناء يفوق ما تتجشمه عندما تخرج لابتياعها من أحد المحال.

توقف كلود عن الحديث كي يلتقط أنفاسه بينما لاحت في عينيه الواسعتين اللامعتين نظرة حالمة والذاكرة ترجع به القهقهري إلى عالم الشباب المفعم بالمسرات.

قلت متجاهلاً حماسه: إن عقلي يعجز عن تصور هذا الأمر، إنني أعجب كيف تسنى لوالدك أن يثبت هذه القبعات الورقية على رؤوس طيور الدراج في الغابة؟

- هذا ما لن تستطيع أن تحزره أبداً.

- إنني أقر بعجزي عن تخيل ما حدث.

- ها أنا ذا أكشف لك عن السر، تحفر في البدء حفرة صغيرة في الأرض، ثم تقرّ فيها قطعة صغيرة من الورق على شكل مخروط بحيث تكون قاعدته لأعلى: ثم تدهن الحواف الداخلية لهذا المخروط الورقي بالغراء، وتضع فيه بعض حبات الزبيب، ثم تنثر حبات الزبيب على الأرض بحيث ترسم خطاً يؤدي إلى المخروط

الورقي. بعد ذلك يأتي طير الدراج العجوز ليلقط الحبّ المنثور حتى يستدرج إلى الفخ المنصوب فما إن يدفع برأسه داخل الحفرة ليلتقم بمنقاره الحب داخل المخروط الورقي، حتى يجد نفسه وقد اعتمر قبعة ورقية لطيفة تتدلى حافتها فوق عينيه وتحجب عنه الرؤية تماماً. ألا توافقني الرأي على أن ما تبدعه قرائح بعض البشر أمور تدعو إلى بالغ الإعجاب؟

- لقد بلغ ذكاء والدك حد العبقرية إن لم يكن جاوزه.

- لذا اختر الطريقة التي تصادف هوى في نفسك، وسوف نطبقها هذه الليلة.

تساءلت وأنا أحدجه في عينيه بصراحة فجة:

ولكن ألا تعتقد أن جميع هذه الحيل والأساليب تنطوي على قدر من السذاجة؟

صاح فاغراً فاه من الدهشة قائلاً: السذاجة... يا إلهي ومن ذا الذي كان ينعم بالتهام زوج من طيور الدراج المشوية كل يوم تقريباً طوال شهور السنة الماضية دون أن يدفع مليماً واحداً؟

أشاح عني بوجهه في استياء ثم تحول عن موقفه متخذاً سمته نحو باب المكتب. أدركت حينئذٍ أن ما تفوهت به قد جرح مشاعره لحد الإيلام. صحت به قائلاً: انتظر لحظة.. لا تذهب..

- هل تريد أن تأتي معي أم لا؟

- سوف آتي معك لكن دعني أولاً أطرح عليك فكرة طرأت على ذهني في التو والحال.

- احتفظ بها لنفسك، فإنك تدلي بدلوك في موضوع يغيب عنك مبادئه الأولية.

- هل تذكر تلك الزجاجة من الحبوب المنومة التي أعطاني إياها الطبيب الشهر الماضي عندما كنت أشكو آلاماً في الظهر؟

- ماذا تريد أن تقول بشأنها؟

- هل هناك ثمة سبب يحول بينها وبين التأثير في طيور الدراج؟ أغلق كلود عينيه معرباً عن يأسه، وهو يهز رأسه إشفاقاً علىّ من هذا المنحى الساذج في التفكير.

صحت به قائلاً: انتظر قليلاً.

- إن هذه الفكرة لا تستأهل النقاش. إن أي طائر دراج في أي بقعة من عالمنا هذا لن يقدم بمحض إرادته على ابتلاع هذه الكبسولات الحمراء اللعينة. هل يعجز عقلك عن ابتداع فكرة أفضل؟

- إنك تغفل عن فكرة الزبيب. الآن أعرني أذنيك وانصت بعناية إلى ما سألقيه عليك. سوف نقوم بنقع حبة زبيب بالماء حتى تنتفخ ثم نشق فتحة صغيرة في إحدى جانبيها بموسى كالتي تضعها في الماكينة عند حلق ذقنك ونفرغها تماماً مما تحويه، بعد ذلك نضع مسحوق كبسولتي المخدر الحمراء في حبة الزبيب ثم نخيط هذه الفتحة الصغيرة بعناية بالغة باستخدام إبرة وقطعة من القطن الآن ماذا ترى؟

لمحت بطرف عيني فم كلود ينفغر ببطء دهشة وإعجاباً، واصلت قائلاً: وعندها سوف نكون مسلحين بحبة زبيب لطيفة بالغة البراءة تحوي في داخلها جرعة من مادة السكونال المخدرة مقدارها حبتان ونصف ودعني الآن أطلعك على أمر بالغ الأهمية هذه الكمية من المخدر كفيلة بأن تفقد الرجل البالغ الرشيد وعيه في الحال فما بالك بأحد الطيور؟

لذت بالصمت هنيهة حتى تستقر كلماتي في مستقرها من نفسه. ثم واصلت قائلاً: وفضلاً عن ذلك فإننا بالتوسل بهذه الطريقة سوف يكون بوسعنا العمل على نطاق كبير حقاً ففي مقدورنا إعداد عشرين حبة من الزبيب على هذا النحو إذا راق لنا الأمر وما علينا حينئذٍ سوى أن ننثرها في أرجاء ساحة الأرض الفضاء المعدة لتغذيتها عند غروب الشمس، ثم نمضي لشأننا كي نعود بعد نصف ساعة وقد بدأت الحبوب تأتي مفعولها في الطيور التي سوف تكون آنذاك معتلية فروع الأشجار يلعب النعاس بأجفانها وقد أصابها الخدر وسرعان ما سوف نجد كل طائر سولت له نفسه التهام حبة زبيب واحدة فقط يفقد اتزانه ويسقط على الأرض غائباً عن الوعي إنني أؤكد لك يا صديقي العزيز إنها سوف تساقط من فوق فروع الأشجار كثمار التفاح الناضجة وعندها لن يكون علينا سوى أن نسعى لالتقاطها من فوق الأرض.

جعل كلود يحدق نظراته في وجهي وهو من الدهشة والعجب في غاية، واصلت قائلاً: كما أنهم لن يتسنى لهم القبض علينا إذ أننا سوف نتمشى في أرجاء الغابة ونحن نلقي من حين إلى آخر ببعض حبات الزبيب إلى الأرض وحتى لو كان الحراس يرقبوننا فلن يلحظوا شيئاً يدعو إلى الريبة.

قال كلود وهو يضع يده على ركبتي مهنئاً إياي: إن نجحت هذه الحيلة فسوف تحدث انقلاباً هائلاً في عالم السطو على الصيد في أراضي الأغنياء.

- يسرني سماع هذا منك.

- كم تبقى لديك من الحبوب المنومة؟

- تسع وأربعون حبة. كانت الزجاجة تحوي خمسين حبة لم أتناول منها سوى حبة واحدة.

إن هذا العدد لن يكفي فنحن في حاجة إلى مائتي حبة في أقل تقدير. صحت فيه قائلاً: هل جننت؟. تزحزح عن موقفه في خطو ثقيل صوب الباب دون أن ينبس.

وقف على عتبته مولياً إياي ظهره وهو يحدق في السماء قائلاً: مائتان هو الحد الأدنى، لن نجني ما نبغيه حقًا من وراء هذه المهمة ما لم يكن لدينا مائتا حبة.

طفقت أتساءل بيني وبين نفسي عما يرمي إليه حقاً من وراء هذه المهمة.

استطرد قائلاً: هذه هي فرصتنا الأخيرة قبل افتتاح موسم الصيد.

صحت به ولما تزايل أساريري هيئة الدهش:

- ليس بمقدورك الحصول على المزيد من هذه الحبوب المنومة.

- أنت بالطبع لا ترغب في أن تعود بخفي حنين أليس كذلك؟

- لكن لماذا تريد هذا العدد الهائل من الحبوب المنومة؟

رمقني بعينيه الواسعتين وقد تجلت فيهما البراءة متسائلاً برقة ولماذا نقنع بالقليل؟ هل لديك ثمة اعتراض على جني محصول وفير؟

طافت في ذهني فكرة أذهلتني يا إلهي إن هذا المعتوه عازم على إلحاق الدمار والخراب الشاملين بحفل افتتاح موسم الصيد الذي سوف يعقده السيد فيكتور هازل. اعتاد السيد هازل إقامة حفل افتتاح موسم الصيد في الأول من أكتوبر من كل عام، كان حدثاً جد شهير يشهده علية القوم من ذوي الضعف الجسماني البالغ وهم يرفلون في حللهم الصوفية الفاخرة بعضهم من حاملي الألقاب والبعض الآخر من ذوي الثراء فحسب، يفدون إلى موقع الصيد في سياراتهم مصطحبين معهم حاملي بنادقهم وكلابهم وزوجاتهم وكان أزيز الرصاص يتردد بين جنبات الوادي طوال اليوم كان هناك دوماً عدد من طيور الدراج يفي بالغرض ففي أثناء كل موسم صيف كان السيد هازل يعوض ما تم اصطياده من طيور الدراج في الموسم السابق بشراء عشرات من أفراخ هذا الطير بأثمان باهظة وإطلاقها في الغابة.

وكان قد تنامى إلى سمعي أن كلفة تربية الطائر الواحد حتى الوقت الذي يصلح فيه للصيد كانت تزيد عن الخمسة جنيهات. بيد أن السيد هازل لم يكن يرى ثمة خسارة فيما يفعله لاعتقاده أنه بإقامته ذلك الحفل السنوي كان يسترد كل مليم ينفقه، إذ كان يغدو، وإن كان لساعات قلائل، موضع العطف في هذا العالم الصغير، إلى الحد الذي يدفع نائب حاكم المقاطعة نفسه إلى أن يربت له على ظهره مودعاً وهو يعصر ذاكرته كي يتذكر اسمه الأول.

قال كلود: لابد أن تدبر لنا مائتين من هذه الحبوب، وسوف ترى حينئذٍ مدى النفع الذي سيعود علينا.

فقلت: لا يسعني تدبير هذا العدد الضخم.

وعندها تساءل: وما رأيك في تخفيض الجرعة من الحبوب المخدرة؟ ما الذي يمنعنا من توزيع محتويات الكبسولة الواحدة على أربع حبات من الزبيب؟

- يمكنك هذا إن أردته.

- لكن هل جرعة المخدر في ربع كبسولة تكفي لتخدير طائر واحد؟

لم يكن يسع أي امرئ سوى الإعجاب بجراءة هذا الرجل وإقدامـه، إذ كانت محاولة اصطياد طائر واحد من طيور الدراج في هذه الغابة وفي هذا الوقت من العام تنطوي على مخاطرة حقيقية، فما بالك بمن ينتوي اصطياد السرب بأكمله؟

طمأنته قائلاً: إن ربع كبسولة تعد جرعة ضخمة بالنسبة لطائر واحد، ولذا فإنك باستخدام ربع كبسولة سوف تعطيها جرعة تزيد عشرين مرة عن المطلوب لتخديرها.

قال وهو يفرك يديه حبوراً: هذا أمر طيب. صمت هنيهة كي يحسب عدد حبات الزبيب المطلوبة. ثم قال: سوف نكون بحاجة إلى مائة وستة وتسعين حبة من حبات الزبيب.

قلت له: هل تدرك ما يعني هذا؟ سوف نستغرق ساعات طوال في إعدادها. صاح بي بحدة: وما هي المشكلة؟ سوف نذهب غداً بدلاً من اليوم وسوف ننقع الزبيب بالماء طوال الليل وسوف يكون أمامنا صبيحة الغد بأكمله وفترة بعد الظهيرة لإعداده.

كان هذا تحديداً ما فعلناه.

ظللنا نغذ السير لمدة أربعين دقيقة، وما كدنا نشارف الموضع الذي تنعطف بنا الحارة عنده إلى اليمين، لتصعد مسافة ميل بطول قمة التل شطر الغابة الكبيرة التي كانت تأوي طيور الدراج حتى سألته مستفسراً.

- إنني لا أعتقد أن هؤلاء الحراس يحملون بنادق على الإطلاق؟

أجابني كلود بلهجة المتثبت مما يقول: جميع الحراس يحملون بنادق.

كان هذا ما كنت أخشاه.

ولكنه أضاف قائلاً: إن الغرض من وراء حمل السلاح في الغالب الأعم هو قتل الثعالب الصغيرة وما شابهها من حيوانات في الغابة ندت عني تنهيدة ارتياح، بيد أنه استطرد: إلا أنه ليس هناك ما يضمن عدم إطلاق نيران أسلحتهم على أحد سارقي الصيد من حين إلى آخر.

- إنك تهزل دون شك.

- إنني لا أهزل على الإطلاق. فهم يصوبون نيرانهم عليك من الخلف أي عندما تولي الأدبار، فهم يجدون متعة في إطلاق النيران على ساقيك من مسافة

خمسين ياردة حتى تبدوان – أي ساقاك – كغربالين واسعي الخروق من هذه المسافة البعيدة.

صحت به قائلاً: ليس بوسعهم أن يفعلوا ذلك إنها جريمة يعاقب عليها القانون.

أجابني كلود من فوره: وكذلك السطو على الصيد في أراضي الآخرين. واصلنا المشي وقد ران علينا صمت شامل. كانت الشمس قد توارت وراء السور النباتي العالي إلى يميننا وغاصت الحارة في الظلال.

واصل حديثه قائلاً: يجدر بك أن تعد نفسك مسعود الحظ لخروجك في هذه المهمة في أيامنا هذه، فقد كان العرف السائد منذ ثلاثين عاماً خلت هو إطلاق النار على أمثالك فوراً ودون تردد.

- هل تعتقد أن هذا ما كان يحدث حقاً؟

- هذا أمر مؤكد فلم يكن هناك ثمة امرئ في القرية بأكملها لم يصب بطلقة في موضع ما من جسده. بيد أن والدي كان البطل دون منازع لما أصابه من طلقات يخطئها الحصر في جميع مواضع الجسد.

قلت: لقد كان محظوظاً.

أضاف كلود بنبرة تعصرها حسرة: لو كان حياً لم يكن هناك شيء ليحول بينه وبين مرافقتنا في مهمتنا هذه الليلة.

فقلت وأنا أزدرد ريقًا جافًا: ولكان بوسعه أن يحل محلي وهو الأمر الذي كان سيلقي مني عظيم الترحاب.

صعدنا إلى قمة التل. امتدت الغابة أمام ناظرينا مترامية وقد غلفها الظلام بظلاله بعد أن غابت الشمس وراء الأشجار وإن التمعت خلال أغصانها خيوطها الذهبية.

قال كلود: أعطني الآن حبات الزبيب.

ناولته الحقيبة فقام بدسها برقة في أحد جيوب بنطلونه، وهو يحذرني قائلاً: لا تفه بكلمة واحدة عندما ندلف إلى الغابة ما عليك سوى أن تسير في أثري، واحذر أن تكسر أي فرع من فروع الأشجار أثناء سيرك أن يند عنها صوت يلفت انتباه الحرس إلينا.

بعد خمس دقائق من السير الوئيد وصلنا إلى الموضع المنشود. كانت الحارة تؤدي إلى الغابة مباشرة، وتمتد بمحاذاة حافتها لمسافة ثلاثمائة ياردة تقريباً لا يفصلها عنها سوى سور نباتي وطئ، مرق كلود خلال السور النباتي زاحفاً على أربع، وتبعته على الفور. كانت الغابة تغوص في الظلام الدامس بعد أن حسرت الشمس الغاربة رداءها عنها كلية وقد سرت فيها نسمة برودة من اللطف والعذوبة في غاية.

همست: إن منظر الغابة يثير في نفسي الفزع.

فهمس بدوره: لا تفه بكلمة واحدة. الزم الصمت التام.

كان كلود يسير أمامي مباشرة وقد غلبه الاضطراب على أمره وطفق يرفع إحدى قدميه لأعلى ويهبط بها بلطف بالغ على الأرض الرطبة أن تحدث صوتاً، كان يحرك رأسه في جميع الاتجاهات طوال الوقت وطفقت عيناه تتحركان في محجريهما تتلمسان مواضع الخطر حاولت أن أحتذي حذوه، ولكن سرعان ما تراقص أمام عيني شبح حارس خلف كل شجرة ولذا أقلعت عن محاكاة سلوكه هذا واصلنا السير ثم انجلى سقف الغابة فجأة عن فرجة فسيحة في السماء.

ساورني شبه يقين بأن هذا الخلاء المكشوف، هذه البقعة الجرداء التي قطعت أشجارها هو هدفنا المنشود إذ كان كلود قد أخبرني أن هذا الموضع هو الذي كانت تجلب إليه أفراخ الطير في أوائل شهر يوليو حيث يقدم لها الطعام والماء وتنعم بالحراسة الشاملة، وهو الموضع الذي كانت تلزمه هذه الأفراخ بعد نموها بحكم العادة حتى بداية موسم الصيد وكان كلود قد قال لي: إن هذا المكان يعج دوماً بطيور الدراج.

طفقنا نواصل تقدمنا الذي اتخذ الآن شكل ركضات فجائية سريعة من شجرة إلى أخرى وقد أحنينا الظهور وطأطأنا الرؤوس تتخللها فترات توقف وانتظار وترقب، وفي النهاية جثونا على ركبتينا مُستخفيين خلف دغل كثيف من شجر الحور على حافة هذه البقعة الجرداء وقد شملنا إحساس غامر بالأمان. افتر فم كلود عن ابتسامة عريضة ولكزني في ضلوعي وهو يشير بيده إلى طيور الدراج التي تراءت من خلال الأغصان وهي تتمشى في أرجاء المكان في غبطة ظاهرة.

كانت هذه البقعة الجرداء مكتظة بطيور الدراج إلى حد يعز على التصديق. وبت واثقاً أن عدد هذه الطيور التي طفقت تخطر حول جذوع الأشجار المقطوعة لا يقل بأي حال عن المائتين.

مال كلود على أذني هامساً: هل تدرك الآن لماذا كنت أصر على مائتي جرعة مخدرة؟

كان المشهد يبعث على الدهشة البالغة كان بمثابة تجسيداً لحلم أي سارق صيد يا إلهي كم كانت قريبة سهلة المنال! كان بعضها لا يبعد أكثر من عشر خطوات من مكمنا. كانت إناث هذا الطير تميل إلى السمن، وذات لون بني، وكانت أجسادها من الضخامة والطراوة إلى حد أنها أثناء سيرها كان الريش على صدورها يوشك أن يلامس الأرض، أما ذكور هذا الطائر فكانت تتسم بالرشاقة والجمال بذيولها الطويلة، والحلقات الحمراء القانية التي تطوق عيونها والتي تبدو مثل مناظير قرمزية خطفت نظرة سريعة من وجه كلود البادي الضخامة والذي يشبه وجه الثور وقد علته أمارات

النشوة الغامرة، والتمع السرور في عينيه وهو يحدج طيور الدراج بنظرات ينفذ منها لهيب الهوى.

تلا ذلك فترة صمت طويلة تناهى إلى أسماعنا أثناءها صوت خشخشة بالغ الغرابة ند عن الطيور وهي تخطر فوق أوراق الشجر الجاف التي تغطي أديم الأرض وبعد دقيقة همس كلود في أذني: ألا ترى الحارس؟

- أين؟

- على الجانب الآخر، واقفاً بجوار تلك الشجرة الضخمة. أمعن النظر قليلاً وسوف تراه.

ندت عني صيحة مكتومة: يا إلهي! إنه يقف بحيث يتجه وجهه صوبنا!

- لا تخف فهو لا يستطيع أن يرانا من موضعه هذا.

لبدنا في مكمننا وعينانا لا تفارقان ذلك الحارس صغير البنية، الذي كان يضع على رأسه قبعة ويتأبط بندقية، لبث واقفاً كأنه مسمر في مكانه وبدا كعامود قصير منغرز في أديم الأرض.

ملت على أذنه هامساً: فلنذهب الآن.

كانت حافة القبعة تلقي بظلال دكناء على وجه الحارس، ولذا لم يتسن لي تحديد موضع تحديق عينيه، ورغم ذلك تهيأ لي أنه يحدق صوبنا طوال الوقت.

قلت له: سوف أغادر هذا المكان، ولكن كلود أمرني بأن أطبق فمي. مد كلود يده بحذر ودسها في جيبه واستخرج منه حبة زبيب دون أن تفارق عيناه الحارس لحظة واحدة ووضعها في راحة يده اليمنى، ثم ندت عن رسغ هذه اليد حركة صغيرة فجائية أطاحت بها في الهواء عالياً.

طفقت أرقبها وهي تطير محلقة فوق الشجيرات ثم وهي تسقط على مبعدة ياردة تقريباً من اثنتين من إناث الدراج كانتا تقفان على كثب من جذع شجرة مقطوعة، وعندها التفتا بشدة في اتجاه مصدر الصوت وقد اعترتهما دهشة بالغة ثم تقدمت إحداهما صوب موضع سقوط الحبة، والتقمتها بمنقارها بنهم وسرور.

سددت نظرة وجلة صوب الحارس بيد أنه لم تبدر عنه ثمة حركة تشي بإدراكه لما حدث. رمي كلود بحبة ثانية تبعها بثالثة ورابعة وخامسة وفي هذه اللحظة رأيت الحارس يعطف برأسه إلى الوراء ناظراً صوب الغابة كي يطمئن على سير الأحوال فيها لم يدع كلود هذه الفرصة السانحة تفلت من بين يديه فانتزع مثل اللمح بالبصر الحقيبة الورقية من جيبه، وأفرغ منها كمية ضخمة في راحة يده وبحركة شاملة من ذراعه طوح بالحفنة بأكملها من فوق الشجيرات إلى الأرض الجرداء. تناهى إلى أسماعنا صوت خشخشة مثل صوت سقوط قطرات المطر على أوراق

الشجر الجافة. بت واثقاً أن جميع طيور الدراج في هذه البقعة سمعت هذا الصوت إذ تبع رمي الحب صوت صفق أجنحة واندفاع محموم صوب موضع الكنز المنشود التفت الحارس برأسه بغتة وعلى نحو تلقائي كما لو كان هناك سلك لولبي مثبت في عنقه ولمح جميع طيور الدراج في هذه البقعة تسدد ضربات خاطفة بمناقيرها إلى الأرض، في سرعة وانتظام كإبر آلة الخياطة كأنما تلقط حباً منثوراً. خطا خطوتين سريعتين صوب مصدر الصوت، وتهيأ لي للحظة أنه سوف يمضي لتقصي الأمر ولكنه توقف فجأة وقد علت وجهه أمارات الحيرة وهو يرسل الطرف متفحصاً حواف ذلك الفضاء الصغير الذي قطعت أشجاره.

قال كلود بصوت هامس: اتبعني وأنت تحبو على يديك ورجليك، ثم مضى يزحف على أربع في حذر شديد خلال شجيرات ملتفة أن يحدث صوتاً وأنا في أثره.

ظللنا نتقدم على هذا النحو حوالي مائة ياردة ثم التفت إليّ قائلاً: الآن حان وقت العدو.

نهضنا وطفقنا نعدو بسرعة الريح، وما هي إلا دقائق قليلة من الركض المحموم حتى وجدنا نفسينا نمرق خلال السور النباتي إلى الممر الآمن مما أشاع في نفوسنا إحساساً عميقاً بالنجاة من خطر داهم وبدأنا نستشعر نسائم ارتياح عميق تهفو على النفس.

قال كلود في صوت كفحيح الثعابين وهو يجاهد لالتقاط أنفاسه: يا للروعة الآسرة! لقد أدينا المهمة على نحو يدعو إلى الإعجاب، أليس كذلك؟ كان وجهه الضخم الآن قد تضرج بالاحمرار من الانفعال وعلته أمارات الظفر المبين. واصل قائلاً: بعد خمس دقائق من الآن سوف يسدل الليل سدوله الكثيفة على الغابة ولن يستطيع ثمة امرئ أن يرى حتى موضع قدمه، أما ذلك الحارس فسوف يكون ماضياً في طريقه إلى منزله ليتناول طعام العشاء.

فقلت: أعتقد أنني ينبغي عليّ أن أنهج مثاله وأمضي على أثره.

ولكن كلود وبخني قائلاً: إنك لص شديد البراعة، فلماذا تقول هذا؟

ثم انزوى تحت السور النباتي مفترشاً الضفة المعشوشبة التي تحف بالممر، وأشعل سيجارة وراح يدخن بتلذذ كانت الشمس قد توارت الآن تماماً وحل الظلام واكتست صفحة السماء بلون أزرق في شحوب الدخان يخالطه اصفرار خفيف ينداح في أرجائها، وطفق اللون الرمادي الذي كان يكسو الظلال في الغابة التي كانت تترامى من خلفنا والفراغات بين أشجارها يتحول إلى السواد.

سألني كلود: ما الوقت الذي تحتاجه الحبة المنومة كي تؤتي مفعولها؟

ولكني صحت فيه قائلاً: انظر ثمة شخص قادم نحونا.

انجلت غبشة الظلام فجأة عن شبح شخص يتقدم صوبنا من بعد قريب، حوالي ثلاثين ياردة فقط. همس كلود: إنه حارس آخر. نظر كلانا إلى الحارس وهو يمضي صوبنا في خطو وئيد. كان يحمل بندقية صيد تحت إبطه، ويمضي في أثره كلب أسود من فصيلة لابرادور التي يُعرف عنها أنها تتمضمض بدماء عراقيب الرجال. توقف عندما أصبح على مبعدة خطوات قلائل منا، كما توقف كلبه كأنه مشدود إليه وجعل يرمقنا من خلال الفرجة بين ساقي سيده. بادره كلود قائلاً بلهجة لطيفة يشوبها ود بالغ: مساء الخير.

كان هذا الحارس طويل القامة بالغ النحافة في حوالي الأربعين من عمره، وذا عينين لا تستقران في محجريهما بنظرتهما القلقة خاطفة البريق كأنما تستقرئ أعين الآخرين بلا توقف ويلوح فيهما ذكاء أسود، وصدغين قويين ويدين تنضحان بالقوة وتنذران بأوخم العواقب.

قال بصوت خافت وهو يقترب منا: إنني أعرفكما. لم يفه كلود بكلمة واحدة. واصل وهو يحرك شفتين رقيقتين علاهما الجفاف: أنتما تعملان في محطة تموين السيارات، أليس كذلك؟ أنت كبج وأنت هوز، وأنتما تعملان في المحطة القائمة على الطريق الرئيسي، هل أنا مصيب أم مخطئ؟

سأله كلود: ما هي اللعبة التي تمارسها معنا؟ أهي لعبة العشرين سؤالاً؟

خطا الحارس خطوة إلى الأمام وصاح وهو يلوح بيده منذراً: انصرفا من هنا هيا اذهبا.

اقتعد كلود حافة الممر في هدوء وهو يدخن سيجارته ناظراً إلى ساقي الحارس دون مبالاة.

واصل الحارس بلهجة آمرة: هيا غادرا هذا المكان لاحظت أنه عندما كان يتحدث كانت الشفة العليا تتحرك لأعلى كاشفة عن اللثة وعن صف من الأسنان الصغيرة التي حال لونها تضرب إحداها إلى السواد، أما بقية الأسنان فيعلوها الاصفرار.

قال كلود بهدوء: إن هذا الممر طريق عام أرجوك كف عن التحرش بنا.

قال الحارس وهو ينقل البندقية من ذراعه الأيسر إلى الأيمن: إنكما تتسكعان في الطريق عمداً بنية ارتكاب جرم. بوسعي أن أقبض عليكما للاشتباه وأسوقكما إلى قسم الشرطة.

قال كلود: ليس بمقدورك هذا.

ركبني اضطراب زلزل أركان نفسي، وأحسست بالرعدة تسري في أطرافي.

واصل الحارس وهو يصعَّد في كلود بصره ويُصوِّب: إنني أرقبكما منذ فترة طويلة، وتساورني الشكوك في نيتكما ارتكاب جريمة ما.

بادرت قائلاً لكلود كي ألطف من صلابته: إن الوقت قد تأخر. هيا نواصل المشي.

طوح كلود بسيجارته بحركة سريعة من يده إلى الأرض ثم نهض في تثاقل قائلاً: معك حق، هيا بنا.

سرنا في الممر في عظمة خيالية تناسب ولاة العرش قاطعين الطريق الذي جئنا منه تاركين الحارس وراءنا وهو يتبعنا ناظريه، وعندما التفت إلى الوراء بعد دقيقة واحدة لأنظر إليه لم أتبين حتى شبحه إذ كان قد ذاب في الظلمة التي كانت تغشى الممر.

قال كلود بنبرة العالم ببواطن الأمور: هذا الرجل هو رئيس الحراس، واسمه رابتس.

قلت بنبرة تشي بالرجاء وقد ساورني الخوف: فلنغادر هذا المكان فوراً.

ـ انتظر سنمكث هنا قليلاً.

لبثنا واقفين بجوار بوابة إلى اليسار تؤدي إلى أحد الحقول وسرعان ما وثبنا من فوقها، وتوارينا تحت السياج النباتي على الجانب الآخر.

خاطبني كلود قائلاً: إن السيد رابتس على وشك أن يمضي هو أيضاً عائداً إلى بيته ليتناول عشائه، لذا أنصحك بأن تغربل نفسك من الهواجس. افترشنا الأرض خلف السياج النباتي في صمت تام في انتظار مرور الحارس بنا في طريقه إلى منزله. كانت السماء صافية إلا من سحائب رقيقة متباعدة، ويرصعها نجوم قلائل تنتثر على صفحتها، ويضيئها بضوئه الخافت قمر بازغ من الشرق فوق التلال من وراءنا وقد توارى ربعه وراء سحابة مفضضة.

مال كلود على أذني هامساً: ها هو قادم لا تتحرك.

لمحنا الحارس وهو يمضي في الممر ناقلاً خطواته في تؤدة وعلى مهل يتبعه كلبه على الأثر في خطوات رشيقة. طفقنا نرقبهما من مكمننا خلف السياج النباتي.

قال كلود ملتمساً الطمأنينة لنفسه: لن يعود إلى الغابة هذه الليلة.

ـ أنى لك أن تعرف هذا؟

ـ ليس من عادة الحارس أن يتربص لك مستخفياً في الغابة إن كان يعرف عنوان بيتك، فهو يتخذ سبيله رأساً إلى منزلك، ويختبئ خارجه مترقباً عودتك وأنت تحمل صيدك الثمين بين يديك ليقبض عليك.

فقلت: هذا يجعل الموقف يزداد سوءاً!

فقال كلود وهو يغمز لي بعينه: لن يكون الأمر كذلك إذا استطعت أن تودع الغنيمة في مكانٍ ما قبل عودتك إلى منزلك فلن يكون بوسعه حينئذٍ أن يفعل شيئاً.

تساءلت بإشفاق: وماذا عن الحارس الآخر؟ أعني الحارس الذي رأيناه في الفضاء الصغير الذي قطعت أشجاره؟

- لقد عاد إلى منزله أيضاً.

- هل أنت واثق من هذا؟

فأجابني بلهجة المتثبت مما يقول: لقد عكفت على دراسة سلوك هؤلاء الحراس لشهور خلت يا جوردون. أقسم لك على ذلك. إنني على معرفة فسيحة بعاداتهم، لذا ليس هناك ثمة خطر نخشاه.

لبثنا في مكمننا دقائق قلال ثم نهض كلود وسار صوب الغابة وأنا أمضي في أثره أجرّ قدمي جراً.

كان الظلام شاملاً داخل الغابة التي كان يغلفها صمت مطبق وبدا لنا ونحن نتقدم على حذر أن جدران الغابة تتجاوب أصداء وقع أقدامنا كما لو كنا نسير في بهو كاتدرائية.

قال كلود: ها هو الموضع الذي ألقينا فيه حبات الزبيب.

طفقت أمعن النظر من مكمني وراء الشجيرات. كان القمر يريق ضوءه الخافت على أديم الأرض الجرداء، وإن أخفق في تبديد سحائب الظلام التي كانت تغشى جوانب المكان.

- سألته: هل أنت واثق أن الحارس قد ذهب إلى بيته؟

- لا يساورني ذرة من الشك في هذا.

رنوت إلى وجه كلود المستقر تحت حافة غطاء رأسه بشفتيه الممتقعتين وصدغيه المرتخيين وقد لوحهما الشحوب، وعينيه الواسعتين وقد التمعت فيهما نظرة جنونية ملتهبة بالحماس والأمل سألته: هل هي نائمة؟

- نعم فوق الأغصان.

- وأين الأشجار التي تبيت فوقها؟

- تلك الأشجار حولنا، فهي تختار الأشجار القريبة من الساحة أوكارًا لها.

- ما الذي سوف نفعله الآن؟

- نمكث هنا وننتظر. لقد أحضرت معي لك كشافاً كهربائياً.

سلمني كشافاً كهربائياً صغيراً اسطواني الشكل وهو يقول بلهجة مقتضبة: ربما تحتاجه.

غمرني شعور بالطمأنينة والراحة لأول مرة سألته: ألا نذهب لتحديد موضع بيات بعضها فوق الأشجار؟

- كلا.

- إنني أود أن أرى هيئتها وهي تبيت فوق الأشجار.

فأجاب كلود بحدة مباغتة: إلزم الصمت من فضلك. فنحن لا نقوم بدراسة الطيور وعاداتها ثم أضاف إننا لسنا أعضاء بعثة علمية. لبثنا هناك لوقت طويل في انتظار ما سوف تسفر عنه جهودنا.

ثم بادرته قائلاً: لقد طافت بذهني منذ لحظة فكرة أشاعت الاضطراب في نفسي. فإذا كان بمقدور الطائر أن يحفظ توازنه على غصن الشجرة وهو نائم، فإنه ليس هناك ثمة سبب يجعله يسقط من فوق الغصن عندما يكون مخدراً.

اختلس إليّ كلود نظرة خاطفة دون أن ينبس.

واصلت قائلاً: فما الذي يجعله يسقط على الأرض؟ فهو لا يزال حياً، وفي حالة شبيهة بالنوم.

أجابني كلود: سيكون تحت تأثير المخدر.

- لكن هذه ليست سوى حالة من النوم، وإن تكن أكثر عمقاً وحدة فلماذا نتوقع منه أن يتهاوى إلى الأرض وهو في هذه الحالة؟

ساد صمت كبكاء أخرس ولاحت نذر اليأس والكآبة تبرز لنا لسانها في تهكم ففتر حماسنا فجأة حتى انطفأ كما تنطفئ شمعة سراج تعرضت لهبة هواء عنيفة.

خرق كلود الصمت قائلاً: كان ينبغي أن نجرب هذه الطريقة على الدجاج أولاً، لو كان والدي حياً لفعل ذلك.

- لقد كان والدك لا ريب ذا عقلية جبارة.

في هذه اللحظة تناهى إلى أسماعنا صوت ارتطام مكتوم يند من الظلام الذي تسبح فيه الغابة وراءنا. تساءلت والبشر يسجع في صدري: ما هذا؟. فأجابني: لا تتعجل فلتزم الصمت التام ولنرهف الأسماع. وسرعان ما سمعنا نفس الصوت المحبب إلى الآذان. كان صوتاً عميقاً، وإن كان مكتوماً مثل الصوت الذي يصدر عن كيس صغير مملوء بالرمال عندما يسقط من فوق منكب حامله إلى الأرض.

سرعان ما داعب آذاننا الصوت للمرة الثالثة.

صحت: إنها طيور الدراج تتهاوى من فوق الأغصان.

- انتظر.

- إنني واثق أن هذا الصوت هو صوت الطيور المتساقطة.

سمعنا نفس الصوت يتردد مرتين أخريين.

فقال كلود: إنك لم تجاوز الحقيقة فيما قلت.

عدونا إلى داخل الغابة لاستطلاع الأمر.

سألته: أين هي؟

صاح كلود: انظر في هذا الموضع لقد رأيت اثنين ممددين في هذا الموضع. استمر في البحث.. لابد أنها سقطت في هذا المكان. طفقنا نبحث عنها لمدة دقيقة.

صاح قائلاً: لقد عثرت على أحدها.

عندما جريت نحوه وجدته يحتضن ذكراً رائع الجمال بين ذراعيه تفحصناه بعناية على ضوء الكشافين الكهربائيين اللذين كنا نحملهما بيدينا.

قال كلود: إن المخدر أفقده الوعي تماماً، لكنه لا يزال حياً، فقلبه لا يزال ينبض.

وسرعان ما سمعنا صوت ارتطام آخر بالأرض.

صاح كلود: لقد سقط طائر آخر ثم بعد لحظة بل طائران.. ثلاث.. أربع.. خمس..

وسرعان ما بدأت طيور الدراج تتهاوى من فوق الأشجار حولنا كفاكهة حان ميعاد قطافها وإن تركت مهملة فوق الأغصان: شرعنا نندفع في جميع الاتجاهات وقد بلغ بنا الانفعال منتهاه، ونحن نمسح الأرض بأضواء مصابيحنا الكاشفة.

وبينما كنت واقفاً تحت إحدى الأشجار سقطت ثلاث طيور على الأرض على كثب من قدمي، ولذا لم أجد ثمة مشقة على الإطلاق في العثور عليها. كانت الغنيمة ديكين وفرخة واحدة. كانت أجسادها طرية تشع منها الدفء، وملمس ريشها بالغ النعومة والرقة.

صحت وأنا أمسكها من سيقانها: أين أضعها؟

- ضعها يا جوردون على الأرض. سوف نكدسها في كوم هنا في هذا المكان الذي يغمره ضوء القمر.

كان كلود يقف على حافة الأرض الفضاء التي قطعت أشجارها وقد أحكم قبضته على عدد هائل من طيور الدراج في كل يد سابحاً في أشعة القمر الفضية. كان

وجهه يومض بالظفر المبين، وطفق يحدق فيما حوله بعينيه الواسعتين اللامعتين مثل طفل اكتشف لتوه أن العالم بأكمله قد تحول إلى شيكولاتة. ومع توالي سقوط الطيور من فوق الأغصان، أعربت عن احتجاجي قائلاً: إن الأمر لا يروق لي على الإطلاق. ماذا سنفعل بهذا العدد الهائل من الطيور؟

صاح: إنه لأمر جد رائع ثم ألقى بالطيور التي يحملها على الأرض وهرع باحثاً عن مزيد.

كان من السهل أن نعثر عليها الآن، فتحت كل شجرة كان يرقد طائر أو اثنان. ولذا سرعان ما التقطت ستة طيور آخر من فوق الأرض وحملت كل ثلاثة في يد، ثم عدت مسرعاً وألقيت بها وسط أكوام الطيور الملقاه فوق الأرض أكداسًا أكداسًا ثم تيسر لي جمع ستة طيور أخر، ثم عدت وجمعت ستة أخر. إلا أن تهاوى الطيور من فوق الأغصان لم ينقطع.

كان كلود في حال من النشوة تعز على التصديق انجرف مع موجاتها العاتية فطفق يندفع بين الأشجار، وتراءى لي كشبح أصابه مس من جنون، ورأيت ضوء كشافه الكهربائي يمسح الأرض في حركة دائرة من آنٍ لآن، وكلما وجد طائراً ندت عن فيه صيحة ظفر خافتة.

صاح في شماتة وهو يسمع صوت تساقط الطيور: ليت السيد فيكتور هازل معنا الآن كي يسمع هذه الأصوات العذبة التي تقع من أذني موقعًا موسيقيًا مطربًا.

صحتُ به: توقف عن الصياح. إنك تبث الفزع في قلبي.

- ماذا تقول؟

- أقول: توقف عن الصياح، فربما يوجد حراس. يتسكعون في أرجاء الغابة وجنباتها، صاح: فليذهب الحرس إلى الجحيم.. اطمئن إنهم الآن يتناولون طعام العشاء.

ظلت طيور الدراج تتهاوى إلى الأرض واحداً إثر الآخر مقدار ثلاث أو أربع دقائق، ثم انقطع سيل انهمارها فجأة.

زعق كلود في وجهي: استمر في البحث. هناك المزيد من هذه الطيور لا تزال راقدة على الأرض.

- ألا تعتقد أنه ينبغي علينا أن نرحل الآن، ونكتفي بما حصلنا عليه قبل أن تسوء الأمور؟

أجاب باقتضاب: كلا.

ولذا واصلنا البحث. طفقنا نفتش تحت كل شجرة تقع في محيط مائة ياردة حول الساحة الجرداء من جميع الجهات.

أعتقد أننا في نهاية الأمر تمكننا من جمع معظمها، وقمنا بتكديس كومة هائلة من طيور الدراج عند مركز التجميع في منتصف الساحة.

علق كلود وهو يحملق في هذه الكومة الهائلة غائب الذهن محلقاً في أجواء النشوة قائلاً: إنه إنجاز يرقى إلى مرتبة الإعجاز فقلت في عجلة ولهوجة وبأنفاس لاهثة: أرى من الحكمة أن يأخذ كل منا خمس أو ست من هذه الطيور، ونسارع بمغادرة هذا المكان.

- لكني أود أن أعدها يا جوردون.

- لا يتسع الوقت أمامنا لهذا ولكنه أصر قائلاً: يجب أن أحصيها واحداً واحداً.

- كلا .. فلنغادر هذا الموضع من فورنا قبل أن يكتشف أمرنا.

أدار إلى قولي أذناً صماء وشرع في عدها بعناية بالغة: واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة.. وهو يلتقطها من فوق الأرض واحدة إثر الأخرى ويضعها جانباً برفق بالغ. كان القمر قد استوى في كبد السماء في جلال وبهاء، مرسلاً دفقات غامرة من أشعته الفضية على جميع أرجاء البقعة الجرداء. قلت: لن أقف في هذا المكان على مرأى من كل من هب ودب.

تراجعت خطوات قلائل صوب الأشجار لأستتر بظلمتها في انتظار انتهائه من مهمته.

واصل العد صائحاً مائة وسبعة عشرة، مائة وثمانية عشراً، مائة وتسعة عشرة، مائة وعشرون، مائة وعشرون طائراً، إنه رقم قياسي لم يحققه أحد من قبل.

لم يكن يساورني ثمة شك في هذا الإنجاز الرائع.

- إن أبي طيلة حياته المجيدة لم يتسن له أن يصطاد في ليلة واحدة أكثر من خمسة عشر طائراً، وعندما كان يحقق هذا الإنجاز كان يظل مخموراً منتشيًا لأسبوع كامل بعده لا يعقل.

- أنت بطل العالم دون منازع – ثم أضفت: هل أنت مستعد للرحيل الآن؟

أجابني: أمهلني دقيقة واحدة. أمسك بطرف السويتر الذي كان يرتديه، ورفعه لأعلى كاشفاً عن الكيسين من القماش القطني الملتفين بعناية حول بطنه، وفكهما، ثم سلمني أحدهما قائلاً: هذا لك. عجل بملء هذا الكيس بالطيور.

كان القمر يسكب فيضاً من شعاعه المضيء فأمكنني أن أقرأ على ضوئه الحروف الصغيرة المنقوشة على طول الحافة السفلية للكيس: ج.. و.. كرمب مصانع كستون لطحن الدقيق، لندن. س. و (17).

هل أنت واثق أن ذلك الحارس ذا الأسنان البنية لا يرقبنا في هذا اللحظة من خلف إحدى الأشجار.

- غربل نفسك من هذه الوساوس والهواجس، فهو لا يزال رابضاً في مكمنه وراء محطة تموين السيارات، كما أخبرتك، ينتظر عودتنا.

شرعنا في ملء الكيسين بطيور الدراج. كانت أجسادها تتسم بالطراوة واللين، وأعناقها كذلك طرية لينة، وكانت جلودها تحت الريش تشع دفئاً باهراً.

قال كلود: هناك سيارة أجرة تنتظرنا في ممر الغابة.

نظرت إليه بعينين ذاهلتين وغمغمت متسائلاً: ماذا قلت؟

- إنني أعود دائماً مستقلاً سيارة أجرة يا جوردون؟ ألم أخبرك بهذا من قبل؟ ثم استطرد قائلاً: إن سيارة الأجرة تفرض ستاراً من السرية حول شخصية راكبها فإن أحداً لا يعرف الراكب سوى السائق هذا هو الدرس الذي علمني إياه والدي.

- ومن هو السائق؟

- تشارلي كينشي وهو يعرب دوماً عن امتنانه العميق كلما سنحت له الفرصة لإسداء معروف لي.

بعد أن انتهينا من ملء الكيسين حاولت عبثاً أن أرفع كيسي الذي أصابه انتفاخ وانبعاج عجيب فوق كتفي، ولكنه كان يحوي حوالي ستين طائراً داخله، ويزن ما لا يقل عن مائة رطل، ولذا قلت له: لا أستطيع أن أحمل هذا الكيس فوق كتفي يجب أن نترك بعضها خلفنا.

فأجابني كلود: جره وراءك.

انطلقنا عبر الغابة الغارقة في الظلام الدامس، ونحن نجر الكيسين خلفنا.

قلت له متشكياً:

لن يسعنا أن نقطع الطريق بأكمله إلى القرية ونحن نجر هذه الطيور وراءنا، هل تعتقد أن تشارلي سوف يفي بوعده؟ ولكن كلود طمأنني قائلاً: لم يسبق لتشارلي أن خذلني قط.

وصلنا إلى حافة الغابة، وطفقنا نحد البصر خلال السور النباتي بحثاً عن سيارة الأجرة القابعة في انتظارنا في الممر. لمحناها على مبعدة خمس ياردات فقط، ناداه كلود بصوت خفيض: عزيزي تشارلي الصغير. لمحت الرجل العجوز الجالس أمام عجلة القيادة وهو يبرز رأسه من النافذة. وسرعان ما تبينت ملامحه في ضوء القمر وهو يضحك ضحكة عريضة تشي بمكر فطري كاشفة عن فم خرب ليس فيه سنة ولا ضرس.

مرقنا خلال السور النباتي، وكل منا يجر كيساً وراءه.

بادرنا تشارلي قائلاً: مرحباً؟ ما هذا الذي تجرونه وراءكما؟

أجابه كلود: كرنب.. افتح الباب.

لم تمر سوى دقيقتين حتى كنا مطمئنين في جلستنا داخل التاكسي وهو يمضي ببطء هابطاً التل في اتجاه القرية.

يا إلهي لقد تخطيت جميع المحن ولم يبق سوى صياح كلود.

كان وجه كلود يومض ببريق الظفر، وكان يغالب نفسه أن يشي بما يعتمل في داخله من أحاسيس الفخار، وما يجتاحه من تيار سماوي من الأفراح، طفق يميل بجسمه إلى الأمام من حين إلى آخر كي يربت على كتف تشارلي، صائحاً في كل مرة:

ما رأيك يا تشارلي في هذه البضاعة التي تنقلها؟ كما طفق تشارلي في كل مرة يوجه إليه هذا السؤال يدير رأسه إلى الوراء ليلقي نظرة سريعة على الكيسين المكتظين بالغنيمة والملقيين على الأرض تحت قدمينا قائلاً بإعجاب: كيف حققت هذا الإنجاز؟

طمأنه كلود قائلاً: نصيبك ستة أزواج من هذه الطيور.

فقال تشارلي: أعتقد أن حفل افتتاح موسم الصيد هذا العام سوف يعاني من نقص شديد في طيور الدراج لحد الأسى والحسرة.

فقال كلود بنبرة ناطقة بالثقة: هذا ما أرجح حدوثه يا تشارلي.

سألت كلود: ماذا ستفعل بمائة وعشرين طائراً؟

فأجابني: سوف أخزنهم في ثلاجات في محطة التموين مع اللحم المخصص لإطعام الكلاب حتى حلول موسم الشتاء.

قلت: لا أعتقد أنك سوف تفعل هذا الليلة.

ليس هذه الليلة بالطبع يا جوردون. فسوف نودعها بيت بسي هذه الليلة.

- بسي من؟

- بسي أورجان.

صك الاسم سمعي بشدة، فرددت مذهولاً: بسي أورجان! كانت السيدة بسي أورجان زوجة قسيس الكنيسة في قريتنا.

- ألا تعلم أن بسي تقوم دوماً بردّ ما أودعه إياها من صيد في صباح اليوم التالي؟

أجبته في حيرة قائلاً: إنني لا أعلم شيئاً على الإطلاق.

وعندها محضني كلود نصيحة ثمينة: اختر دوماً امرأة تحظى بالسمعة الحسنة والاحترام كي تسلمك ما سطوت عليه من صيد، ألا توافقني على هذا يا تشارلي؟

أجاب تشارلي: إن بسي فتاة ماهرة حقاً تستحق عظيم الإعجاب. وصلنا إلى القرية كانت أعمدة الإنارة في الشوارع لا تزال مضاءة، ورأينا رجال القرية يمشون الهوينى عائدين إلى منازلهم بعد أن أغلقت الحانات أبوابها.

لمحت ويل براتلي وهو ينسل بهدوء داخل محل بيع الأسماك الذي يمتلكه من خلال الباب الجانبي دون أن يدرك أن زوجته المصون تطل برأسها من النافذة التي تعلوه، وقد تضرج وجهها بالاحمرار من الغضب.

قال كلود: إن القسيس يجد قرة عينه في طير الدراج المحمر.

فأمنّ تشارلي على قوله قائلاً: إنه يعلقها لمدة ثمانية عشر يوماً في ثلاجات، ثم يهزها بشدة حتى يسقط جميع ما يكسوها من ريش. انحرف التاكسي يساراً وجعل يهتز بشدة وهو يجتاز بوابة منزل القسيس. كان المنزل غارقاً في الظلام، ولم نقابل أحداً من أهل البيت.

ألقيت أنا وكلود بطيور الدراج في الكوخ المعد لتخزين الفحم خلف بيت القسيس ثم ودعنا تشارلي كينشي وعدنا إلى محطة التموين مشياً على الأقدام سرنا جنبًا إلى جنب في طريق شبه خال وقد تخففنا من حملنا الثقيل ونصف القمر مرشوق فوق الأفق كابتسامة كونية في سماء صافية. لست أدري حتى يومنا هذا إن كان السيد رابتس لحظتئذ كان لا يزال يلبد في مكمنه خلف محطة تموين السيارات يترقب وصولنا أم أنه غادره وهو يزفر من الملالة والسأم فلم يرنا ونحن ندلف إلى المحطة عائدين من الغابة.

في صباح اليوم التالي بادرني كلود وقد وقف يرسل ببصره خلال النافذة قائلاً: ها هي تمضي في طريقها إلينا.

- من؟

- بسي أورجان. لفظ الاسم بفخار واعتزاز، وإن شابه قدر من الشعور بالامتلاك، كما لو كان جنرالاً ينوه بإنجازات أشجع ضباطه.

مضيت على أثره إلى الخارج.

أشار بيده قائلاً: ها هي هناك.

استطعت أن أتبين في نهاية الطريق شبح امرأة صغيرة الجسم وهي تتقدم صوبنا.. سألته: ما الذي تدفعه أمامها؟

نظر إليّ كلود نظرة تقطر مكراً ودهاء قائلاً: ثمة وسيلة وحيدة آمنة لتسليم الصيد، وهي وضعها تحت طفل رضيع.

أمنت على قوله بصوت غير واضح: نعم.. نعم يا كلود.

واصل كلود قائلاً: لابد أن الطفل الذي تدفعه أمامها في العربة هو طفلها كريستوفر أورجان، الذي يبلغ من العمر سنة ونصف. إنه طفل رائع الجمال يا جوردون وضعت يدي على حاجبي وأنا أحدّ البصر حتى استطعت أن أتبين بعد طول جهد طفلاً رضيعاً جالساً في العربة على نحو ملفت للانتباه ويثير العجب، إذ بدا تحت الغطاء المنكس كما لو كان جالساً فوق تل صغير.

قال كلود ووجهه مشرق بسعادة غامرة: إن هذا الطفل يرقد فوق ستين أو سبعين طائر دراج على أقل تقدير: هل يمكن تخيل هذا؟

- بيد أن أي امرئ لا يسعه أن يحشر ستين أو سبعين طائراً في عربة أطفال.

فأجاب كلود بحماس: بل يسعك هذا إن كانت العربة مزودة بجيب سحري عميق في قاعها. وإن قمت بنزع الوسادة التي يرقد عليها الطفل الرضيع وحشرت الطيور في المساحة المتاحة حشراً حتى قمة المقعد. وكل ما تحتاجه حينئذٍ هو ملاءة تغطيها بها كما أنك سوف تدهش عندما تدرك صغر المساحة التي يشغلها طائر الدراج عندما يكون جسمه رخواً طرياً.

وقفنا بجوار مضخات البنزين، في انتظار وصول بسي أورجان في ذلك الصباح الدافئ من أحد أيام شهر سبتمبر الذي سكنت فيه الرياح تماماً، وإن تلبدت السماء بالغيوم منذرة بالرعد والبرق والمطر. قال كلود بلهجة تقطر إعجاباً: انظر كيف تخترق القرية بأكملها بعربتها دون أن يساورها خوف أو تردد. إنها امرأة ممتازة.

فازدردت ريقي بمشقة وقلت: إلا أنه يبدو لي أنها في عجلة من أمرها.

أشعل كلود سيجارة جديدة من عقب سيجارة انتهى تواً من تدخينها قائلاً: إنها لا تتعجل الأمور أبداً.

- انظر.. إن مشيتها ليست عادية.

ضيق عينيه وهو يسدد إليها بصره من خلال سحائب دخان سيجارته، ثم انتزع السيجارة من بين شفتيه، وعاود النظر صوبها محملقًا هذه المرة.

تساءلت: ما رأيك؟

قال بهدوء وهو ينتقي كلماته بعناية: يبدو أنها تمضي بسرعة أكبر من المألوف بالنسبة لسيدة من الفرض أنها تصطحب طفلها في نزهة في الهواء الطلق. أليس كذلك؟

- بلى إنها تندفع مهرولة كمن يطلق للريح ساقيه وقد تولاه ذعر مباغت كمن رأى شبحًا.

قطع الحديث لحظة صمت شرع كلود يحملق بشدة صوب المرأة التي كانت تواصل تقدمها نحونا، ثم قال على سبيل التفسير: ربما ترغب في التحامي من الوقوع في شرك المطر يا جوردون. أراهن على أن هذه الرغبة هي الدافع وراء هذه العجلة فهي تتوجس خيفة من سقوط المطر بين لحظة وأخرى وهي تخشى على طفلها من البلل.

صحت قائلاً: انظر لقد شرعت في العدو بأقصى سرعة.

وقف كلود مسمراً في مكانه يرقب المرأة بعينين حذرتين مستطلعتين تهيأ لي أثناء فترة الصمت الذي انجحرنا فيه فراراً من الحيرة إنني أسمع صوت صراخ الطفل.

قلت له: لابد أن الطفل يشكو من شيء.. إنه يصرخ.. انصت.

في هذه اللحظة كانت بسي على مبعدة حوالي مائتي ياردة من موقفنا بجوار المحطة ومع ذلك كانت تنطلق مثل قذيفة صوبنا.

سألته: هل تسمعه الآن وهو يطلق صراخه مدوياً؟

فأجاب كلود بصوت انحبس في حلقه: نعم.

خفق قلبي مفزوعًا وقلت بصوت متهدج:

إن صيحاته ترتفع إلى عنان السماء.

طفقت صيحات الطفل تزداد حدة وقوة وقد اكتسبت طابعاً هستيرياً، يصك الآذان، ويلقي بالفزع في القلوب.

قال كلود ملتمسًا الطمأنينة لنتفسه: إنه يعاني من نوبة عصبية.

- إنني أتفق معك في هذا.

- هذا هو السبب وراء عدوها الجنوني يا جوردون، إنها تريد أن تهرع به إلى المحطة كي تضع رأسه تحت صنبور ماء بارد لتهدئ من ثائرته.

قلت له: إنني واثق أن تفسيرك هذا لا يشوبه خطأ.

شرع كلود الذي كان واقفاً في ممر السيارات الذي يكسو أديمه لطبقة سميكة من الحصى يراوح بين قدميه وهو من القلق في غاية.

استطرد قائلاً: إن الأطفال الرضع الصغار من أمثال كريستوفر يعانون من ألف سبب وسبب يدفعهم إلى البكاء والصياح.قلت وأنا لا أملك قلبي من الجزع: بالطبع أنت محق في هذا.

ولكنه واصل: بيد أنه مهما كان السبب، فإنني أرغب في أن تتوقف عن هذا العدو الجنوني.

تباطأت سيارة لوري ضخمة محملة بالطوب كانت تمضي في الطريق حتى صارت تساير بسي.

أبرز قائدها رأسه من النافذة، وهو لا يكف عن الحملقة فيها إلا أن بسي واصلت العدو، وازدادت اقتراباً منا مما أتاح لي أن ألمح وجهها الضخم وقد تضرج بالاحمرار، فاغرة فاها وهي تلهث من الانفعال. كما لاحظتُ أنها كانت ترتدي قفازاً أبيض يشي بولعها بالأناقة والغندرة وتضع على رأسها قبعة بالغة الغرابة بيضاء اللون أيضاً كي تنسجم مع القفاز، وقد استقرت على رأسها مثل نبات عش الغراب.

وعلى حين بغتة انطلق من العربة قافزاً في الهواء مباشرة طائر هائل الحجم.

انطلقت من حنجرة كلود صيحة فزع مدوية.

وشرع قائد سيارة اللوري الأحمق الذي كان يسايرها يقهقه بالضحك. طفق الطائر يصفق بجناحيه في الهواء لثوان قلائل وقد أصابه الخدر، ثم حط على الحشائش التي تحف أحد جانبي الطريق. في غمرة جميع هذه الأحداث واصلت بسي العدو بعزم وتصميم. ثم فجأة انطلق طائر آخر كالقذيفة من داخل العربة، ثم تلاه ثالث ورابع وخامس. صحت في فزع يا إلهي: إن تأثير الحبوب المنومة قد بدأ في التلاشي.

قطعت بسي آخر خمسين ياردة بسرعة هائلة، وسرعان ما مرقت إلى ممر محطة تموين السيارات كالرصاصة وجسمها ينتقض من الانفعال، في حين واصلت الطيور القفز في الهواء في جميع الاتجاهات.

صاحت قائلة: ما هذه الفوضى؟ ما الذي يحدث؟

ولكنني زعقت فيها قائلاً: انطلقي إلى الخلف. ولكنها توقفت فجأة بجوار المضخة الأولى من صف المضخات، إلا أننا قبل أن نصل إليها كانت قد أمسكت بطفلها الذي لم يتوقف عن الصياح، ورفعته من داخل العربة.

صاح كلود وهو يعدو نحوها بصوت متقطع من العذاب والفزع بدا كأنه استغاثة غريق يتخطفه الموج العاتي: لا ترفعي الطفل من العربة. أعيديه إليها. أجلسيه فوق الملاءة. بيد أنها لم تكن تنصت إليه في حقيقة الأمر. وفور زوال ثقل الطفل من فوق الطيور، ارتفعت سحابة هائلة من طيور الدراج تتشكل من أربعين أو

خمسين طائراً إلى السماء التي ازدحمت من فوقنا بهذه الطيور البنية التي طفقت تصفق بأجنحتها بكل قوة كي تحافظ على ارتفاعها محلقة فوق مبنى المحطة.

جعلت أنا وكلود نجري في أنحاء الممر، ونحن نلوح بأذرعنا في جميع الاتجاهات كي نطردها بعيداً عن موقع المحطة بيد أنها لم تكن قد أفاقت من تأثير المخدر بعد ولذا عجزت عن الاستجابة لمحاولتنا، ولذا فإنها في خلال نصف دقيقة هبطت ثانية. انتشرت في جميع أرجاء مدخل المحطة مثل سرب من الجراد كانت تغطي المكان بأكمله، وقد استقرت إحداها لصق الأخرى على طول حواف السطح، وفوق المظلة الخرسانية التي تعلو مضخات البنزين. كما كان هناك عشرة طيور على الأقل طاب لها الوقوف على أفريز نافذة المكتب، كما أن بعضها كان قد طار، وحط على الرف الذي كانت تصطف فوقه زجاجات زيت تشحيم السيارات، في حين لبد عدد لا بأس به فوق الحقائب الخلفية للسيارات القديمة التي كنت أتجر فيها وانتصب أحد الديكة متباهياً بذيله الجميل فوق قمة إحدى مضخات البنزين في حين استقر عدد هائل منها فوق أديم الممر بالقرب من موقفنا، وقد شرعت في تنظيف ريشها بمناقيرها، وهي تطرف بعيونها الصغيرة على نحو متواصل كمن أفاق بعد طول سبات. انتظم خلف سيارة اللوري بحمولتها من الطوب التي أوقفها سائقها وسط الطريق طابور طويل من السيارات وشرع الجيران يفتحون أبواب منازلهم ويخرجون لاستطلاع الأمر عن كثب.

خطفت نظرة سريعة من ساعة يدي. كانت عقارب الساعة تشير إلى التاسعة إلا الثلث جعلت أتفكر: في أي لحظة الآن سوف تمر سيارة ضخمة سوداء قادمة من القرية، وسوف تكون سيارة رولزرويس، أما الشخص الذي سوف يكون قابعاً خلف عجلة القيادة، فهو السيد فيكتور هازل الجزار العظيم صانع الفطائر والسجق.

صاحت بسي متشكية وهي تضم طفلها الذي لم يكف عن الصياح إلى صدرها: "كانت على وشك تمزيقه إلى أشلاء بضربات مناقيرها الحادة".

قال كلود بوجه تعلوه صفرة الموت: عودي إلى منزلك الآن يا بسي.

خاطبت كلود بصوت خامل محشرج بالخيبة: أغلق يا كلود المحطة. اطفئ نور اللافتة.

إن اليوم عطلة.

اختفاء الأشباح
للكاتب وليام بلومر

رغم قصر الزيارة التي قامت بها السيدة دي بول بينكس لكورندن هول فإن ذاكرتها احتفظت بتفاصيل الحدث وكأنها احتفرت فيها بمسمار من نار. ففي بعد ظهر أحد أيام الصيف الماضي شوهدت سيارة فخمة حمراء اللون وهي تبطئ من سيرها في الطريق الرئيسي تهيئة للانثناء منه إلى عطفة جانبية تؤدي إلى كورندن هول وبينما كان السائق يميل بسيارته إلى العطفة اختطفت السيدة نظرة سريعة من اللوحة الإرشادية المغروزة في جانب الطريق وطلبت من السائق أن يبطئ من سرعته كي تتملى جمال الريف. كانت المرأة وسيطة العمر. على أكمل صحة وعافية، صارمة النظرة متعالية الهيئة يوحي منظرها بالعزم والتصميم مفرطة في التأنق والزينة بفستانها الأبيض الذي تخالطه لمسات من اللون الأسود ويشي امتلاء أعلاه بثراء الصدر، ويعلوها قبعة صغيرة على أحدث طراز بما يميزها من نقرة غائرة في وسطها مما أضفى عليها في نفس الوقت عراقة الثراء ومحاولة مجاراة روح العصر ومسايرة التطور في شكل القبعات، ويشي برغبتها المستمرة في تغيير الزي وابتكار البدْع (المودة).

استوت هذه السيدة التي كانت في عام 1907 فتاة تحظى بذكاء لماح وهو ما يتجلى في مذكراتها الشخصية ورواياتها الباكرة على حد سواء، والتي كان اسمها زلي دي بول بينكس يحمل قدراً من الغرابة والشذوذ عن المألوف يفوق طبيعة شخصيتها الحقيقية. استوت مثالاً على قدرة المرأة على مسايرة أحوال عالمنا الحديث والإطلاع على خباياه دون التخلي عن فتنة الشباب ورحيقه المسكر وما يتسم به من مغالاة في التأنق والزينة ويحق لنا القول بأن هذا الإفراط في التأنق والزينة لحد البهرجة كان من أسباب نجاحها وعلو نجمها. بدت بعد ظهيرة هذا اليوم المشهود كما لو كانت ذاهبة إلى حفل تقيمه إحدى صديقاتها في حديقة منزلها بوجهها الذي يعلوه زواق رائع يظهر رونقه ويتألق بالحيوية التي تشع من عينين تلتمعان بالحماس وإن كانتا تفتقدان النفاذ والعمق، وبحبات اللؤلؤ التي تنتظمها قلادة في عنقها والتي طفقت ترتفع وتنخفض مع اهتزاز السيارة فوق تلك المساحة ذات اللون القرمزي والتي تتخذ هيئة المثلث أسفل جيدها والتي يكشف عنها طوق الفستان والتي لم تنس أن تذر عليها قليلاً من البودرة. كما كان يوحي بذهابها إلى حفل وليس قيامها بزيارة جادة لمنزل أثري الثياب الغالية الثمن التي كانت ترفل فيها ومظاهر الطبيعة الموحية بعنفوان الصيف وإن أحدق به نذر الخريف مهددة إياه باستلال روح الشباب الفائر منه.

ثمة عدم انسجام لا يمكن أن تخطئه العين بين طبيعة المكان الذي ترتاده السيدة وهيئتها الفاتنة داخل السيارة الليموزين التي تخطف الأبصار بلونها الأحمر القاني وهي تنساب في خفة فوق أديم الطريق الريفي الضيق الذي يمتد إلى جانبيه سياج من شجيرات العليق. كانت المرأة مطمئنة في جلستها المريحة في السيارة الفخمة وهي تتهادى بها نحو الهدف المنشود، وجعلت تلقي نظرات عجلى سطحية ذات اليمين وذات الشمال من عينين مدربتين بغية اقتناص السمات التي تضفي على المكان صبغة محلية ينفرد بها وهي تتمايل وتهتز بخفة مثل كعكة الجيلي المزينة بطبقة من الكريمة.

كان الطريق الضيق على الجانبين يكتنفه فضاء ريفي المنظر مطبوع بالطابع الإنجليزي النمطي بما يتناثر في جنباته من أشجار الدردار التي تقطر جلالاً وبهاء، والمروج الخضراء وحقول القمح التي تضي بخضرة متألقة والجو المضمخ برائحة التبن وعبق المروج وطيور القنبر التي تصدح في السماء دون انقطاع. خفضت السيارة من سرعتها وهي تصعد هضبة معشوشبة يمتد إلى جانبيها سياج من الشجيرات جد مرتفع حجب عن الأعين مناظر الريف. طفقت السيدة ترنو إلى قفا السائق بعقل غائب. ولاح في عينيها دهشة لا تخلو من انزعاج لإحساسها بأنه غير غريب عن ناظريها وإن لم تصلها به أسباب التعارف على نحو يوطد مشاعر الألفة بينهما إذ كانت معاملتها لخدمها تتسم بقدر كبير من الاستعلاء عليهم مما حال دون إطلاعها على الكثير من أحوالهم بيد أن إحساس الدهشة الذي اجتاحها لم يؤجج في قلبها شعلة الحماس لمعرفة المزيد عنه.

عندما شارفت السيارة قمة الهضبة لمحت السيدة انحساراً تدريجياً في كثافة السياج النباتي كاشفاً عن منظر طبيعي أقل تنسيقاً وتشذيباً. انداح أمام ناظريها من فوق القمة مشهد وادٍ فسيح تنتثر في جنباته الأشجار بوفرة سخية وينساب في أرجائه مياه جدول مائي يلتوي وينثني في طريقه للالتقاء بمجرى نهر "جلو سسترشير أوز" ولمحت في وسط الوادي أبراج "كورندن هول" وما يحيط به من أشجار وقد اتخذت هيئة طاقة ورد يزدان بشريط يلتف حولها من فروع المجرى المائي.

أمرت السيدة بينكس سائقها بالتوقف لحظات قلائل طفقت أثناءها تحدق في المشهد السابح في أجواء من عالم الأحلام وقد انعقدت في عينيها نظرة ترقب مخيفة تنطق بالشره والنهم مثل نظرة صقر منهوم أنشب مخالبه في جسد أرنب عجوز بالغ الرقة وهو يغط في نومه غطيطاً تهيئة لازدراده دون إبطاء.

كان "كورندن هول" يتسم بالعراقة والبهاء وإن لم يكن بالمنزل الفسيح ويكمن مصدر الجذب الرئيسي الذي جعل قلوب السائحين تهوى إليه وتتحول إليه أعينهم كأنها بوصلات تنجذب إلى قطب في تمتعه بميزة تزداد ندرة مع كر الأعوام وهي

بقاؤه في حوزة أفراد من نفس العائلة المالكة له منذ تشييده في أوائل العصور الوسطى.

قالت السيدة لنفسها وقد ارتفعت حرارة اهتمامها لدرجة الغليان: لقد تعاقب على "كورندن" جيل أثر جيل من سلالة عائلة بوت منذ زمن جد سحيق. قر منها العزم على أن تستبدل باسم بوت اسماً آخر أكثر بريقاً ولمعاناً عند استخدام ما تجمعه من مادة لنسج خيوط روايتها القادمة.

لم تكن السيدة تعرف السيد بوت إلا أن فكرة الزيارة انقدحت في ذهنها عندما طالعت فقرة في أحد الصحف المحلية تشير إلى أن السيد أدموند بوت قرر أن يحتذي حذو أصحاب الضياع الآخرين، ووافق على السماح للجمهور بارتياد أجزاء معينة من ضيعة العائلة والقاعة في فترة بعد الظهر من يوم الخميس كل أسبوعين طوال الصيف وذلك في مقابل مبلغ يدفعه كل زائر لا يقل عن شلن وسوف تخصص هذه المبالغ في صالح المستشفى الجديد في المقاطعة، واستطردت الصحيفة قائلة: إن هذه القاعة التي تعد دون شك أحد المباني الأثرية الفخيمة الجليلة المجهولة نسبياً، لم تفتح أبوابها للجمهور من قبل، ولذا يجدر بنا أن نهنئ السيد بوت على هذا القرار الذي يشي بحرصه على مصالح الجماهير بما يتيحه لهم من فرصة جد طيبة في هذا العصر الذي يمضه القلق ويضنيه روح التنافس الشرس لزيارة هذا الأثر الجليل الذي يعبق بشذا عطر إنجلترا في عصور السعادة والهناء الغابرة. كان هذا القصر في الأصل ديراً أنشأه أودو أسقف بايو. وشهدت قاعته إبان العصور الوسطى احتفالات تثير الخيال وتشعل الأفئدة لخطرها وجلالها. وأشيع أن الملكة اليصابات قد باتت إحدى لياليها في هذا القصر.

انحدرت السيارة في طريق وعر متجهة نحو الوادي وهي تهتز وتتأرجح وسط سياج مرتفع من الشجيرات المهملة التي لم يمسها يد التشذيب تمتد إلى جانبيه. جفلت طيور الشحرور السمينة من أزيز السيارة الذي كدر الهدوء الشامل فطارت من مكامنها فوق غصون شجيرات أزهار البلسان التي طفقت تتمايل وتتأرجح في الهواء الدافئ الساكن، وقد تعالى صراخها فمزق السكون تمزيقاً. توقفت السيارة في مكان يخيم عليه السكون ويشيع في جنباته الدفء ويفوح برائحة روث الأبقار النفاذة ويطوف بأرجائه النحل وهو يطن طنيناً متواصلاً في سعيه بين نباتات القراص الذابلة والبقدونس.

لمعت عينا السائق بنظرة ارتياب حائرة وهو ينظر إلى بوابة قديمة مصفحة بقضبان حديدية خمسة تقبع وسط السياج النباتي نصف مسدلة الجفون قائلاً: أعتقد أن هذه البوابة تؤدي إلى كورندن هول.

- هذا هو ما أعتقد أيضاً يا هورسفال رغم أنني لست مقتنعة بأن هذا الممر الضيق الذي يثير الاشمئزاز هو الطريق الوحيد المفضي إلى كورندن هول، هل أنت واثق أنك سلكت الطريق الصحيح؟

- نعم.. فهو الطريق الذي دلوني عليه، بيد أننا لا يسعنا المضي بالسيارة في هذا الممر الضيق.

- معك حق سوف أغادر السيارة لأقطع بقية الطريق مشياً على الأقدام. من فضلك انزل عن السيارة وافتح لي البوابة. بيد أنه يخيل إلى أننا أخطأنا الطريق الصحيح.

انطلقت تسير في ممشى وعر يشق أرضاً معشوشبة ناشرة مظلة بيضاء فوق رأسها مخلفة هورسنال وراءها يسلي وقته بتدخين سيجارة، وتصفح جريدة "ديلي اكسبريس" بعينين تجريان على أسطرها جريان الشرود والملل. ألقت نظرة عجلى مفعمة بالقلق تجاه بقرة ترعى في بقعة معشوشبة بعيدة، وقد ران عليها هدوء يقارب النعاس، ثم نشطت تعمل فكرها في صياغة العبارة التي سوف تلقيها على السيد بوت إذا لاحت فرصة سانحة: إنني أنقب عن مادة تصلح لرواية تاريخية أعتزم كتابتها، بيد أنني أود بطبيعة الحال أن يظل هذا الأمر سراً بيننا.

وعندما رأت قنطرة حجرية وطيئة مقامة فوق أحد الجداول، أدركت أن هذه القنطرة تؤدي مباشرة إلى تلك البقعة المعشوشبة المنسقة المهذبة التي تنداح أمام ناظريها يتوسطها المنزل نفسه. لاحت في عينيها دهشة لا تخلو من انزعاج، ولجت بها الحيرة. ساءلت نفسها وقد التمعت عيناها بنظرة ارتياب حائرة عما ستفعل بعد أن ضلت الطريق ورغم أن شعورها بالثقة الذي يلازم حركاتها وسكناتها لم يفارقها إلا أن صمت هذا اليوم الصائف جثم على روحها كصخرة. كانت تتوقع أن ترى المكان مكتظاً بالسيارات والزائرين وقد أخذوا حظهم من التأنق والزينة. فقالت لنفسها بريق جاف: شدّ ما أعجب لمالك كورندون هول أن يستبيح لنفسه أن يجشم زائريه مشقة الخوض في هذه المروج في حجهم إلى هذا الأثر التاريخ!

توقفت عن المشي وقد ركبها الذهول والحيرة وراحت تضرب الأرض بقدميها بشدة لتزيل عن حذاءها ما يطويه من طين. وسرعان ما راودتها رغبة لا تقاوم في البكاء مدفوعة بإحساسها بالقهر لمعاندة الحظ إياها، وتوارى كل جميل في دنياها.

استأنفت السير، بيد أنها لم تكد تخطو خطوتين فوق القنطرة حتى صك أذنيها صيحات هائلة عصفت بجذور قلبها. التفتت بشدة نحو الصوت وقلبها يدق بعنف يكاد تصدع له الضلوع فرأت أعداداً هائلة من طيور البط يخطئها الحصر تسبح في جماعات، وقد اجتمعت كل جماعة منها في كومة متلاصقة كأنها أسطول حربي

صغير أخذ أهبته لقتال ضارٍ حتى الموت وهي ترشقها بنظرات ملؤها سوء الظن والارتياب، مطلقة صيحات الدهشة والارتباك يخالطها غير قليل من أحاسيس السخط والحقد التي كانت تعتمل في الصدور.

علا صياحها فمزق السكون تمزيقاً. وسرعان ما تلقت جماعات البط الأخرى الصيحات كما يتلقى الجنود علامة الهجوم، فجعلت تصيح في تجاوب متواصل. امتلأ الجو بالصيحات المدوية التي انشقت عنها حناجر تلك الجحافل التي كانت تريق عليها الشمس شعاعها الدافئ أو جحافل البط الأخرى التي كانت تتسكع تحت أشجار الصفصاف ونباتات الزعرور البري. سرى الذعر في جموع البط سرى النار في الهشيم، وعلت صيحات الاحتجاج وتطايرت زعقات الغضب والويل يخالطها صيحات خافتة أو مكتومة رددتها حناجر جوقة صغيرة ركبها الارتياع حتى تفككت مفاصلها من الرعب الذي لا يوصف. خيل إلى السيدة بينكس أن ظهور ثعلب على القنطرة بغتة لم يكن ليستثير مثل هذا القدر من الفزع والصخب من جانب هذه الطيور التي يفترض فيها الوداعة والطيبة. والتي لو كانت لمحت كلاب حراسة تقدح عيونها شرراً وتنتفض من الغضب والحنق وهي تجد في أثرها بإرادة لا تتثنى وعزم لا يعرف الكلل لم تكن لتثير في قلبها هذا القدر من الرعب والفزع. استعدت المرأة جسارتها واستهانتها وعبرت في تصميم مباغت القنطرة متجهة صوب الحديقة. طالعتها قاعة كورندن بجدرانها الرمادية الشاحبة والتي اتخذت جميعها – فيما بدا لها – هيئة نوافذ تحدجها بنظرات ارتجف لوقعها جسمها.

كما رأت أيضاً بقعة فسيحة معشوشبة يتناثر في جنباتها أحواض يكتظ أديمها بالزهور، ولكنها لم تر إنساناً على مرمى البصر. تساءلت بينها وبين نفسها في ذهول وحيرة: ألم يأت أحد من أبناء الريف المترامي حولنا لزيارة المنزل ومد يد العون إلى المستشفى الجديد؟. انعقدت سحب الحيرة فوق رأسها فراحت تساءل نفسها: هل تتجه رأساً إلى الباب الأمامي للمنزل أم تتجه إلى ذلك البستاني الذي لمحته واقفاً هناك وراء أحواض الزهور مولياً إياها ظهره الذي تكسوه فانلة رمادية مهلهلة عليها طوائف شتى من الأوحال وقد انحنى متقوساً مستغرقاً بعمل ما؟ قر منها العزم على مخاطبة البستاني أولاً وبينما هي تدنو منه لمحت رقعة أخرى من أرض معشوشبة يكاد يغطي أديمها أقفاص بط مصفحة بغشاء سلكي ذي ثقوب بالغة الصغر. سرعان ما اكتشفت أن ذلك البستاني كان غارقًا حتى قمة رأسه في تشييد أحد الأقفاص أو الأكواخ الخشبية التي يبيت فيها البط ويحضن بيضه.

دنت منه دون أن يحسها وابتدرته بتحية تشوبها نفس اللهجة التي تحيي بها خدمها. انتبه بعنف نحو الصوت كأنما يستجيب للسعة سوط وخفق قلبه خفقة عنيفة كسقطة طيارة منطلقة في فراغ هوائي، إتكأ على ركبتيه وقام جاهداً ببنطلونه الذي بلغ حداً من الرثاثة يدعو حقاً إلى الرثاء. وقف قبالة المرأة وقد مد ذراعيه إلى الأمام

في زاوية منفرجة مع جسده أن تتسخ ملابسه، تصفحت عيناه وجهها بعقل غائب، بيد أنه قبل أن يتمكن هذا الرجل الذي تسنم ذروة الكهولة وشرع في الانحدار نحو الشيخوخة بشاربه الذي جرى المشيب فيه والتجاعيد التي تطوق عينيه الحادتين بنظراتهما النفاذة قبل أن يتمكن من رد تحيتها (إذ كان يتدبر جميع أموره ككل أهل الريف في روية وهدوء) سارعت قائلة: هل ترى أن بمقدوري زيارة القاعة؟

فأجاب الرجل وهو يومئ برأسه صوب المنزل وقد افترت شفتاه عن ابتسامة غريبة تشي بالطيبة والسخرية والحيطة والحذر في آن: نعم بكل توكيد.

انتظر أن تواصل حديثها بيد أنها وقفت مذهولة هنيهة، وقد عقدت الدهشة لسانها. راحت تساءل نفسها: هل هو حقاً بستاني؟ قالت بلهجة تنم عن رغبتها في تفسير موقفها، وإن لم تخل من ترفع واستعلاء: لقد طالعت في الجريدة خبراً ينبئ القراء بفتح القاعة أمام جمهور الزائرين.

فقال الرجل وقد ارتسم ظل ابتسامة على شفتيه: نعم هذا صحيح في أيام محددة بيد أنه مما يدعو إلى الأسف أن هذا اليوم ليس أحدها. فأنا أصحب الزائرين في جولة بأرجاء المنزل في يوم الخميس من كل أسبوعين، ولذا فإن اليوم المحدد للزيارة الخميس القادم.

تكشفت الحقيقة المرة لها دفعة واحدة. جعلت تلعن حظها في سرها، وسرعان ما حسرت عن وجهها قناع العظمة والخيلاء، وراحت تهدهد من عجرفتها وغلوائها. قالت بلهجة أسيفة وهي تحس بأنها تغوص في أعماق خيبة جامعة: لقد ارتكبت خطأ فادحاً بمجيئ في يوم غير محدد للزيارة.

فأجاب: بيد أنه حيث إنك أتيت إلى هنا فإنني سوف أتدارك الأمر وأطوف بك في أرجاء المنزل. خاصة أنني أظن أنك أتيت من مكان بعيد. إلا أنني أنذرك أنك سوف تغرمين مبلغاً إضافياً لصالح المستشفى على سبيل العقاب لمجيئك في يوم غير مخصص للزيارة. ما رأيك في سرب البط الذي أمتلكه؟ في تلك الصناديق القابعة هناك يفقس البيض عن الأفراخ، أما هنا فنحتفظ بأفراخ البط مع أمهاته، فهذه الأفراخ عمرها أسبوعان، وهذه عمرها شهر واحد.. نرعاها بعين اليقظة حتى تكبر ونطلق سراحها.

قالت مستوهبة تأييده، وإن شاب لهجتها عدم الاقتناع: إنها مخلوقات صغيرة جديرة بالحب والإعجاب. فأجاب السيد أدموند بوت: تعنين المخلوقات الصغيرة التي تنطوي على نفع مادي لنا، ثم مضيفاً: سوف أذهب الآن لغسل يديّ. أتمانعين في انتظاري في البهو؟.. إنني أظن أن الباب الأمامي مفتوح.

مضى وهي تتبعه ناظريها حتى غيبة المنعطف. اتجهت السيدة صوب المنزل رأساً وهي تسير مرفوعة الرأس ثابتة الأقدام، وقد اهتز قلبها بسعادة طاغية

لاستئثارها بالسيد بوت لنفسها طوال زيارتها لهذا المنزل التاريخي وما إن دلفت داخل البهو حتى تجلى في أعماق عينيها فتور يوحي بخيبة الرجاء إذ كان مذاقها فيما يتعلق بفن الديكور يجاري أحدث صيحة في هذا المضمار. كان البهو ذا سقف عالٍ تعرت جدرانه من الطلاء ويكسو أديمه أرضية حجرية، ويمتاز بنوافذ عالية، ويزدحم جوانبه وأركانه بروائع الفن من صور وتحف عبر القرون خاصة القرن الفائت. طالعتها الفازات الصينية الضخمة المحشوة بذلك النبات الذي تجهل اسمه والذي ينمو على ضفاف البحيرات وما تزدان به الجدران من صور في أطر هندية جيدة الصنع يعلوها تهاويل غريبة نافرة وسط صور أفراد العائلة العريقة وشعارات النبالة الدالة على كرم المحتد وعراقة الأصل. عاود السيد بوت الظهور بيدين نظيفتين وابتدرها قائلاً: إننا نجلس في هذه الحجرة في الصيف، ونهجرها في الشتاء ثم واصل قائلاً: هذه هي أقدم حجرة بالمنزل.

كان السيد بوت على خلاف معظم المرشدين العاملين في مجال الآثار القديمة يصطنع لنفسه صيغتين من الحديث لزوار منزله، فعندما كان يتقدم جماعات ضخمة من الزائرين ليريهم المنزل الأثري كان يقصر نفسه على ذكر الحقائق والتواريخ وإن لم يكن يتردد أحياناً عن تخفيف جدّ الموضوع الذي يتحدث فيه بملح ونكات ينثرها في غضون حديثه هنا وهناك إلا أنه عندما كان يستقبل جماعة صغيرة أو زائراً واحداً، فإنه كان يسبغ على المهمة مسحة من المشاعر الإنسانية، فتنفك عقدة لسانه متخطياً حاجز تحفظه المعهود، ويطيب نفساً ويفرك يديه حبوراً بملاحظة وقع ما يتندر به من نكات وملح في النفوس، وكذلك ما يند عنهم من تعليقات. بيد أن السيدة بينكس بمظهرها المتعالي وحركاتها المترفعة وشخصيتها ذات الطابع الارستقراطي الذي لا تخطئه العين أخفقت على نحو ما في أن تستثير مشاعر الود المعهودة التي يجيش بها صدره حيال البشر دون تمييز. خامره النفور نحوها بلا سبب واضح، كما حنق عليها في باطنه لقطعها عليه عمله بالحديقة.

ابتدرته قائلة: يخيل إلى أنني لم أسلك الطريق الصحيح المفضي إلى منزلك. فقال بلهجة بين الاكتراث وعدمه: لا تهتمي بهذا الأمر أظن أنك سرت عبر الحقل إلى هنا. ثمة طريق آخر بطبيعة الحال ولكنه لا يفضله كثيراً سوى أن السائر فيه لا يجتاز حقلاً. إننا لا نبالي إن كان الطريق الموصل إلى هنا جيداً أم بالغ الوعورة. فثمة طرق كثيرة فائقة الجودة في بلادنا في الوقت الراهن، ولذا لم يعد السير في طريق وعر من حين إلى آخر قميناً بأن ينغص على المرء صفوه صمت هنيهة ثم واصل: ثمة حكاية تدور على ألسنة الناس هنا جرت أحداثها أثناء القرن الثامن عشر حول أحد سكان هذه المنطقة الذي لمح أثناء سيره في طريق طيني كانت قدماه تسوخان في أوحاله قبعة ترقد فوق أديمه. ركلها بقدمه فاكتشف أن ثمة رأساً بداخلها وعندما

حفروا التربة لاستخراج صاحب الرأس وجدوه ممتطياً ظهر جواد ولذا فإنه ليس ثمة ما نجأر بالشكوى منه في حقيقة الأمر. أما هذه القاعة فتسمى القاعة الجنوبية.

كان جدار البهو إلى يمين الداخل يتحلى بروائع الفن من صور ولوحات في حين تناثرت أسفل الجدار المقابل بعض الأعمال النحتية التي تعود إلى الفترة اللاحقة لكانوفا، وإن كان بزمن طويل، وسط صناديق تحوي طيور البوم المحنط يعلوها أسلحة تم الاستيلاء عليها من بلاد بعيدة يحيط بها هالة من الغموض. قال وهو يشير إلى إحدى الصور المعلقة بالجدار: هذه الصورة المرسومة بالزيت من ريشة الفنان جينز بورو والتي تصور شاباً في معطف أزرق تمثلني على عهد الشباب.

لم تكن السيدة بينكس على معرفة فسيحة بفن الرسم بيد أنها كانت تعلم قدر هذا الفنان العظيم. ولذا فإنها تمتمت وهي تحدق في صورة السيد بوت بوجهه الذي ينطق بالوداعة والهدوء وإن خلا من أي مسحة جمال وقد تسربل في معطف أزرق باهت: يا للروعة المبهجة!

- إلا أن جميع من يعرفون هذا الوجه قر منهم الرأي على أنه أقرب للدمامة منه للحسن.

- بيد أنه كعمل فني يُعد...

فقاطعها قائلاً: نعم ليس ثمة عيب فيه كعمل فني. ندت عنه وهو يدلف بسرعة إلى حجرة واسعة تتميز بسقف مزدان بالصور والتهاويل، وأرضية اختفت تحت ركام الأتربة وخلت من أي قطعة أثاث سوى خوان يتيم تعلوه كعكة حفل تعميد استقرت داخل صندوق زجاجي وقد اختفى أديمها تحت طبقة من العفن سميكة لحد الدهشة.

قال بلهجة يدب فيها الحماس: إننا لا نستخدم هذه الحجرة إلا أن الزائرين يشخصون بأبصارهم إلى السقف أحياناً. رفعت السيدة بينكس بصرها إلى السقف. ابتدرها السيد بوت قائلاً: إنني لم أشخص ببصري قط إلى أي سقف فإنني أخشى على عنقي التيبس، ولذا فإنني أرى من العبث أن يزين امرؤ الأسقف بالرسومات والتهاويل.

- كنت على وشك أن أقول إن...

فقاطعها ثانية قائلاً: كوني على حذر هذه الدرجة من السلم فقد تصدعت فتهاوى نصفها. ثم واصل: كانت هذه الحجرة تستخدم لحفظ الدروع عندما كنت صبياً ثم أردف متعجباً: دروع! من يستخدم دروعاً الآن! لذا فإن الحجرة لا تحوي الآن سوى مضارب تنس وأحذية قديمة ذوات رقبة كما ترين، والآن فلنكمل جولتنا في أرجاء المنزل.

- يا لجمال منزلك وروعته! إنني أفكر في...

- جميل! ربما... ولكن العادة طوت مشاعر الإعجاب. إنني لا أرى فيه الآن سوى منزل أكله البلى والتقادم. إنه يبدو متماسكاً صلباً الآن في فصل الصيف لكن الشتاء هو الذي يفضح تهالكه وتداعيه كما أنني لم أعد شاباً.

"إن تعاقب الأجيال على هذا البيت بطبيعة الحال هو ما يثير في النفس الإحساس بالروعة والجلال" ندت عنها مستوهبة تأييده، ومدفوعة بالأمل في أن يتحدث عن أسرته ذات الأصل العريق.

واصل دون اكتراث لمقاطعتها: انظري خلال النافذة وسوف ترين الجدول المائي، لقد كان خندقاً مائياً يطوق الحصن، هذه الحجرة كانت تستخدم كحجرة حمام في الماضي. كنت أدلف من النافذة وأقف وراءها مدلياً الشص في الماء. أظن أنه ليس ثمة رجالاً كثيرين في إنجلترا يسعهم المباهاة باصطياد سمك من نافذة حجرة الحمام مثلي.

أحس أنه ينزلق تدريجياً دون وعي منه إلى اصطناع لهجة الحديث التي اعتادها مع حشود الزائرين بأن ينثر نادرة أو نادرتين في غضون حديثه. فقالت السيدة بينكس: كلا.. بطبيعة الحال.. ندت عنها وقد ساورتها الشكوك في أن حياة العزلة التي فرضها على نفسه في هذا المكان الموحش قد خلفت أثراً لا يُمحى في عقله فاعتراه نوع من الخبل أو حصل له لطف. ولذا قر منها العزم على مجاراته في وهمه ومسايرته على اعتقاده.

استغلت الصمت الذي سحب ذيله بينهما هنيهة وابتدرته قائلة: إنني مضطرة إلى الاعتراف بأن ثمة فكرة تعشش في رأسي منذ فترة طويلة وإن كنت أطوي عليها صدري فلم أطلع عليها أي إمرئ. إنني أنتوي كتابة رواية تاريخية وعندما أتيت إلى هنا اليوم طفقت أنقب في كل زاوية عن الصبغة المحلية التي تطبع هذا المكان بطابعها وقد استجمعت يقظتي واستحضرت حذري كأن في رأسي أربع أعين ترى الجهات جميعاً في وقت واحد. فهل يتنغص عليك صفوك إذا علمت أنني اعتزم وصف منزلك في روايتي كما أتمثله في عصر الملكة اليصابات.

قال وهو يرفع حاجبيه الخفيفين متأملاً متعجباً: يا إلهي! في سياق رواية! إنني أشفق من إطلاعك على جانب هام من جوانب حياتي وهو أنني لم أطالع في حياتي رواية قط بيد أنني لا يسعني أن أحول دون كتابتك رواية أليس كذلك؟ إلا أنني لن اقرأها أبداً ولذا فإنني لن أعلم ما تتناوله من أحداث أو شخصيات فلتجعليني أحد شخصياتها: إنسان يعيش في عالم موشي بزخارف مجد زائل تخلقه له أوهامه يصنع ساحة لتربية البط إلا أنني لن أعرف أبداً الدور الذي سوف اضطلع به في هذه الرواية. أليس كذلك؟

ثم تقدمها وهو يرتقي سلماً يفضي إلى السطح قائلاً: الآن سوف نصعد إلى السطح حتى يتسنى لك رؤية مناظر الضيعة من علٍ.

صعدا إلى السطح الذي امتد جزء من أديمه في استواء. وانبثق في مواضع عدة منه مداخن حجرية، استند إلى إحداها كرسي من الخيزران مطلي باللون الأخضر. وقفا فوق السطح وقد مالا بجسديهما إلى الدرابزين في تراخٍ وهما يسرحان الطرف في الأراضي المعشوشبة الموشاة بحيضان الأزهار، وأحواض زراعة الخضراوات التي ينتثر في جنباتها الأصواب، ومنحنى الجدول الذي يتألق بأشعة الشمس الدافئة وقد انتثر على أديمه البط بوفرة سخية كما لمحا من موقفهما فوق السطح قطعة الأرض الوحيدة التي ظلت كمتنزه حول كوارندن.

قالت السيدة بينكس منحيةً تحفظها ووقارها جانباً وقد انطلقت أساريرها في بشر: يا للبهجة المنعشة! يا له من منظر بديع يستأسر النفوس ويخلب الألباب. إنني أغبط أي امرئ ينعم بهذا الهدوء السماوي في مثل هذه الأوقات العصيبة.

تناهى إليهما عزف جوقة من البط من بعيد كما لو كان يسايرها على اعتقادها. بصعوبة الحياة في العصر الحديث.

قال السيد بوت بصوت لا يخلو من رنة الأسف: إن البشر يكابدون أوقاتاً عصيبة في البقاع التي يظللها الأمن والسلام مثلما يكابدونها في أي مكان آخر من العالم لقد لقى شقيق أحد قتلة الملوك حتفه غرقاً عند هذا المنحنى من الجدول كما أن قوات كروميل أقامت معسكراً عند قمة المنحدر. وقد امتد الحصار الذي فرضوه حول العدو حوالي شهرين كما أن عصر الحكومة السباعية ذات المقاطعات السبع كان قد شهد معركة ضارية عند هذا المنحدر. بيد أنه من حسن الحظ أنه ليس ثمة أشباحاً تنغص علينا صفونا.

فقالت السيدة بينكس بصوت وشت نبراته بانفعالها وتأثرها: عجباً لا يوجد أشباح! أفظع بها من حقيقة! بيد أنني واثقة أن ثمة أشباحاً تجول في جنبات القصر.

- بيد أن هذا المكان يخلو منها كلية.

فقالت كمن يكابد خيبة أمل وإن لم تبرأ مشاعرها من قدر من الادعاء: تصور أن يخلو مثل هذا المكان من أشباح! ثم جلست على الكرسي.

صاح السيد بوت بصوت مرتعش النبرات: يا إلهي! لقد نسيت أن أحذرك!

- تحذرني من ماذا؟ ندت عنها وقد رفعت إليه وجهاً افتر ثغره عن ابتسامة حيية.

- إن الطلاء لم يجف بعد.

وثبت من مجلسها كالملدوغة.

- لابد أن رداءك الجميل قد أتلفه الطلاء. استديري. نعم لقد صدق حدسي.. لقد منحناك قدراً من الصبغة المحلية يزيد عما كنت تطمحين إليه بالمجئ إلى هنا. إنني يا عزيزتي جد آسف.

كان ظهر الفستان الناصع البياض مخططاً عند المؤخرة أو ما يطلق عليها أحيانًا خلفية أو عجيزة بخطوط خضراء متوازية ومتقاطعة تفتقر إلى التناسق.

بيد أن إطراءه جمال ردائها وقع من نفسها موقعاً حسناً فأحست إحساس الحران يهب عليه نسيم بارد معطر بالياسمين. ولذا اهتبلت هذه الفرصة كي تكشف عن قدرتها على إغداق مودتها صافية على الآخرين. فانفرجت شفتاها عن ابتسامة خفيفة تشي بالارتياح والسرور بما ركبه من حرج لغفلته عن تحذيرها في الوقت المناسب.

بادرها قائلاً: كما أنني أعرب عن أسفي لعدم وجود مادة تنظيف بالمنزل تمحو هذه الخطوط اللعينة.

قالت وهما يهبطان الدرج معًا: إنني لا يسعني تصنع الرضاء عما حدث إلا أنني لا ألوم إلا نفسي لما أبديته من غفلة. إذ استبد حديثك بمشاعري استبداد المال بقلب اليهودي الشحيح فوجدتني مدفوعة برغبة ملحة في الجلوس لأتابعه، وقد استجمعت حواسي للإصغاء.

فقال: إنني جد آسف لما حدث ثم واصل: هل تمانعين في كتابة اسمك في سجل الزائرين؟

كتبت اسمها لكنه لم يكلف نفسه عناء النظر إلى الاسم الذي كتبته على هيئة التوقيع، ورغم أنها كانت تعلم بجفوله من قراءة الروايات، فإن ثمة أملاً كان يراودها في أن يقول وهو يبتسم مشرقاً: ها! السيدة دي بول.. بينكس! إن هذا الاسم يرن في أذني رنين المعهود والمألوف.

ثم حانت منها التفاتة إلى صندوق التبرعات لمستشفى المقاطعة فدنت منه يداخلها إحساس قوي بالأسف والحسرة. قال بنبرة ودودة: كنت أنتوي إعفاءك من دفع تبرع بعد ما لحق بردائك من تلف بين.

إلا أنها فتحت حقيبة يدها واستخرجت منها عملة ورقية من ذات الشلنات العشر قائلة: ولكنك يجب أن تأخذ هذا المبلغ من المال.

- إن هذا المبلغ حرى بأن يتيح لك المبيت هنا على فراش نهيئه لك. إذ أننا نطلب من الزائر أن يدفع شلناً واحداً فقط وذلك من منظور المبدأ.

قالت مدارية مرارة وهي تلتقط قفازها من فوق الخوان: كما أنني أتيت في اليوم غير المخصص للزيارة.

أوصلها فقط حتى الباب. قرع أذنيها وهي تعبر الجسر صيحات الوداع الساخرة تنطلق من حناجر جوقة من هذا البط اللعين.

لمحها هورسفال وهي تحث خطاها صوب السيارة وقد لاحت في عينيها بوارق الغضب وعكست حدقتاها استياء. بادرته متسائلة عن صحيفته ديلي اكسبريس التي كان يطالعها، وطلبت منه أن يبسطها على مقعد السيارة الخلفي. لم يسعه أن يحزر السبب وراء هذا المطلب الغريب إلا عندما فتح لها باب السيارة لتدخل.

قالت والغضب يشتعل تحت قبضة إرادتها: عد بي إلى المنزل يا هورسفال. عندما اتخذ مجلسه وراء عجلة القيادة ندت عنه ابتسامة خفيفة داراها بعبوسة مصطنعة.

وفيما بعد انتحى بالطاهي جانباً وعالنه بالحقيقة: كانت سيدتي تبدو مثل أنثى حمار وحشي خضراء اللون مفعمة بالشباب والحيوية.

كيت تشوبين

(1851-1904)

ولدت كيت أوفلاهرتي في سانت لويس بالولايات المتحدة لأب ذي أصل أيرلندي وأم فرنسية وتلقت تعليمها في مدرسة للراهبات الكاثوليك في سانت لويس. تزوجت في التاسعة عشرة من عمرها من أوسكار تشوبين الذي أنجبت منه ستة أطفال.

عقب وفاة زوجها في عام 1882 قفلت عائدة من لويزيانا حيث كانت تعيش مع زوجها إلى سانت لويس، عكفت على الكتابة لتقيم أود أسرتها.

في عام 1899 نشرت روايتها الرائعة يقظة الجسد The Awakening والتي تعد المعادل الأمريكي لرواية فلوبير "مدام بوفاري" بيد أن النقاد انهالوا عليها نقداً وتعريضاً لما طرحته من وصف لخبايا مشاعر المرأة وأحاسيسها. لم تحظ تشوبين بتقدير النقاد والقراء إلا بعد وفاتها.

التحليق في أجواء السعادة ساعة

بقلم كيت تشوبين

كانوا يعلمون أن مدام مالارد تشكو تعباً مزمناً في قلبها ولذا لم يدخر أحد من وسعه وسعاً لتخفيف وقع خبر مصرع زوجها عليها. أحاطتها أختها جوزفين بنبأ مصرعه في ألفاظ تعثرت على شفتيها مقاطع ممزقة مبتورة يكتنفها الغموض وإن كانت تكشف قدر ما تخفي. لبث ريتشاردز صديق الزوج جوار مدام مالارد لا يفارقها. كان في مكتب الجريدة عندما بعث مراسلها بخبر حادث القطار، وقد تصدر اسم برنتلي مالارد قائمة القتلى بيد أنه لم تصدق عزيمته على مكاشفتها بالحقيقة المروعة إلا عندما توكد له صحة النبأ البشع إثر تلقيه برقية أخرى تحمل النبأ نفسه ثم غادر المكتب يحث خطاه بعزم صوب منزل الفقيد أن يسبقه صديق لا يراعي حساسية الآخرين أو يفتقر إلى اللباقة المطلوبة عند إحاطة زوج الفقيد بالخبر فيصدمها بالنبأ المشئوم.

بيد أنها لم تتلق النبأ كالمطرقة فوق رأسها مثل آلاف النساء اللاتي يتلقين مثل هذا الخبر كأسوأ داهية تنقض عليهم من عالم الغيب فيلبثن لحظات وقد ألجمت الدهشة ألسنتهن قبل أن يستقر الخبر في وعيهن وإدراكهن إذ أخذتها بغتة نوبة حادة من البكاء وجعلت تنتحب وتشهق كالأطفال وهي تتطامن في حضن أختها تطامن الفرخ في حضن أبيه وعندما انحسرت عنها موجة الحزن العاتية لاذت بحجرتها كي تخلو إلى نفسها لتحتضن هذا الحدث متأملة حتى تستصفي معانيه كلها.

انحطت إعياء على أقرب مقعد مسندة رأسها إلى راحتها وهي تشعر بضيق غليظ يثقل على صدرها كأنما تهوى إلى أعماق بئر سحيقة. سبحت بنظرها خلال النافذة المفتوحة شاخصة إلى سماء الميدان الفسيح المترامي أمام منزلها التي تمتلئ برؤوس الأشجار الباسقة. كان الهواء يقطر عذوبة ورقة غب المطر، والربيع يتسلل بخطاه الخفيفة ينفث في الجو أنفاسه الرقيقة، والنسيم يهب متقطعاً خفيفاً ضعيفاً فيراقص الغصون والأوراق رقصاً رحيماً رقيقاً. ترامى إليها من الميدان نداءات بائع جوال يسرح ببضاعته كما تهادى إلى أذنيها صوت عذب يترنم بأغنية جميلة. في حين انبعثت زقزقة العصافير عن أطناف العمائر المثقلة بأعشاشها.

انبسطت السماء بين هامات العمائر تسبح فيها السحب البيضاء في زرقة عميقة صافية. جلست غارقة في المقعد الكبير مطروحة الرأس إلى الوراء تحملق في السقف وقد تحجرت في عينيها نظرة لا معنى لها. جلست جامدة كالتمثال لا يند عنها حركة سوى في تلك اللحظات التي تخنقها فيها العبرات فتأخذها رجفة ترتعش معها

شفتها السفلى وذقنها كطفل أخذته سنة من النوم وهو ينشج باكياً وإن كان نوماً شديد العذاب تقطعه زفرات بكاء تصدر عنه على فترات متقاربة.

كانت شابة في مطلع الحياة تغلب عليها الوداعة والهدوء، وتلوح في عينيها نظرة ثقيلة تنم عن استسلام حزين، وإن كان منظرها يوحي بما طبعت عليه من عزم وصراحة ونبل وجدية. كانت عيناها في تلك اللحظة تعكسان نظرة خابية تفيض غماً، وتغيمان بسحب ذكريات سود، وهي تشخص إلى السحب البيضاء تسبح في السماء في زرقة عميقة صافية جعلت ترسل النظر خلال نافذة الحجرة وقد استكنت في عينيها نظرة خاملة لا تنشد إلا السلامة بما يشيع منها من حزن عميق ويأس سحيق.

ثم أحست بهاجس يتسلل إلى روحها ويوسوس في صدرها. انسكب سم القلق في نفسها فاشتعل فؤادها بالقلق والوجل كانت تجهل طبيعة هذا الهاجس الذي طفق يداور ويحاور ويروغ روغان الثعلب كي يدفعها إلى الانسلاخ من جلدها انسلاخاً. مضى زحفه وئيداً متواصلاً فوق أديم السحب نافثاً وسواسه في الفضاء الذي تتجاوب في أركانه أعذب الألحان وفي الجو الذي يعبق بالشذا الطيب، والسماء الزرقاء منقوشة بالسحب البيضاء.

اعترتها رجفة الخوف من الرأس إلى القدم تمادى بها الهلع وخافت أن يفلت منها الزمام فيغشى عليها، تخايل لعينيها المصير المنتظر وقد دنا منها، خيل إليها أنها تسمع رفيف أنفاس هذا الهاجس وتحس بها تلفح خدها، استعدت إرادتها لتتغلب على الرجفة السارية في بدنها واستحفزت في نفسها العزيمة والثقة بالنفس بيد أنها سرعان ما ارتطمت بالخيبة وأدركت ضعفها وقلة حيلتها فتلاشت همتها وفتر حماسها وهي تدفعه بيديها الرقيقتين وقد دب في روحها هزال اليأس والضعف. غمغمت كأنما تهامس نفسها وقد انفرجت شفتاها قليلاً "حرة.. حرة.. حرة".

ذبلت نظرة عينيها الزائغة الذاهلة التي تحملق في لا شيء كما تلاشت نظرة الارتياع التي تجلت في عينيها عندما دهمها هذا الهاجس وحل محلهما نور ظافر تألقت به عيناها الجميلتان. استغرقتها سكرة طاغية من السعادة في أسرع من لمعان البرق فشعرت بأن وزنها يخف وإن نسائم الحبور تهفو إلى وجدانها أفاقت من ذهولها فشعرت بأنها تولد في عالم جديد يخلو من ذل القهر وانكسار القلب، وتهزج فيه نفسها بسكرة التناغم مع الذات والحياة والكون. لم تشغل نفسها بتأمل هذه الفرحة الراقصة التي غزتها فسمت بها إلى أرفع سماوات السعادة إذ أن القلب يكف عن التساؤل عندما يضطرم الوجدان بنشوة الحبور وسكرة الطرب، وترتوي الروح برحيق الهناء حتى تثمل. بيد أنها تعلم أنها سوف تغرق في نشيج حار عندما يطالعها بيديه الرقيقتين وقد أحكم الموت قبضته الباردة عليهما، ووجهه الذي كانت لا تستبين فيه أحيانًا سوى الحب والحنان والمودة وقد غشيته سحائب الظلام وتلفع بغلالة من اللامبالاة بما يكسوه من لباس العدم.

رغم صدمة وفاته القاسية إلا أنها كان يثملها إحساس حميم بأنها بلغت غاية ما وراءها غاية، وشاعت في رأسها نشوة ألذ من نشوة الخمر وأحمى. كان في رأسها حماس وفي قلبها نذير نشوة البراعم قبل أن تتفتح، شعرت بالقيود تنحل من حول عنقها ويديها وقدميها، وبأنها تخلق روح جديدة تختال بالحبور والإلهام لن يكون ثمة أحد تقف حياتها على رعايته بعد الآن لن تراعي إلا ذاتها وآمالها لن تخضع لمن يلتذ بالتحكم في مصيرها أو يجد قرة عينه في حملها على الإذعان لمشيئته، لن تكون كالكبش الذي يستمرئ ضرب المخالب ويستلذ وقع الأنياب.

راحت تقلب أوجه الرأي في مسألة الحرية وهي ترشف من كؤوس السعادة خمراً صافية، وقد فاض بقلبها سرور لا يوصف. كانت في قرارة نفسها مقتنعة بأن صدق النية أو نشوة الطغيان بالآخرين التي هي أشد من نشوة الخمر وأحمي أو القسوة التي تسري في العروق مسرى الدم لا يمكن أن تعد عذراً للطغيان بالصاحب أو الزوج أو الرفيق.

كانت تشعر أحياناً بأنها تحبه من مجامع قلبها إلا أن شعلة حبها كانت تذبل في معظم الأحايين حتى تنطفئ. خاطبت نفسها قائلة في شبه غمغمة: ماذا يهم الآن؟ الحب؟! لكن ما قيمة هذا اللغز الأبدي قياساً إلى نعمة التناغم مع الذات والحياة والكون؟

تمتمت بصوت مرتعش النبرات، وقد استخفها طرب جنوني عذب: إنني حرة.. حرة إنني أحس – لفرحي - بحنين إلى البكاء.

جثت أختها جوزفين على ركبتيها وقد ألصقت شفتيها بثقب الباب المغلق. قالت بصوت متهدج وهي تمانع دموعها: لويز افتحي الباب أتوسل إليك لا تستنيمي إلى قبضة الحزن واليأس المرير. إن قلبك الضعيف سوف يتضعضع تحت شدة الحزن ولوعته.

جاءها صوت لويز من وراء الباب المغلق قائلاً: إنني أود أن أخلو إلى نفسي. لا تخشى شيئاً.

لم تكن تتجرع الأحزان أو غصص القنوط. كان يرقص بين ضلوعها حماس بهيج وقد حلت بها سعادة جنونية وهي تمد بصرها خلال النافذة إلى السحب الراكضة. أشرقت عيناها بالأمل وهي ترمق مستقبلها بعين الاستبشار حلقت بها أحلامها في سماء السعادة والغبطة يساورها إحساس حميم بأن الأيام والسنين سوف تمضي مترقرقة بالسعد والإقبال وإنها سوف تتملى الحياة صفاء خالصاً.

غمغمت بدعاء بصوت رقيق مفعمة نبراته بالرجاء أن يمد لها في عمرها. أعجب بها من حقيقة تثير الدهش والتساؤل! فقد كانت بالأمس تقرصها قشعريرة فزع وتحس البرودة تسري في مفاصلها وعظامها عندما يساورها هاجس قلق: ماذا لو قدر

لها أن تحيا حياة طويلة؟ هل ستقضي بقية عمرها ترصدها التعاسة كأنما لا تجد فريسة سواها؟

بيد أنها لم تجد لنفسها بداً حيال إصرار أختها من النهوض لفتح الباب. نظرت إلى أختها بعينين تتألقان بنور ظافر وتعكسان هياماً بحب الحياة لحد الجنون. غادرت حجرتها وهي تسير دون وعي منها في عظمة خيالية تناسب ولاة العرش طوقت خاصرة أختها بذراعها وراحتا تهبطان معاً أدراج السلم المفروشة بالسجاد. لبث ريتشاردز في مكانه أسفل السلم جامداً كالتمثال وقد تجلت في عينيه نظرة حزن عميق.

سمعوا المفتاح وهو يدار في القفل، ثم انفتح الباب يمزق صريره الصمت. أغلق برنتلي مالارد الباب وراءه ثم دار على عقبيه ومضى يقطع البهو في خطوات متثاقلة متخاذلة وقد تبدى الإعياء في أعماق عينيه. كانت تغشى وجهه وبشرته طبقة غليظة من غبار. لم يكن في موقع الحادث وقت وقوعه، كما كان يجهل نبأ الكارثة كلية. انطلقت من حلق جوزفين صرخة مدوية اندفع ريتشاردز صوبه كي يواريه عن نظر زوجه تصلب مالارد في وقفته ويده قابضة على حقيبة السفر. عقدت الدهشة لسانه ووقف مذهولاً وقد هرب قلبه في أعماقه. بيد أن محاولة ريتشاردز باءت بالخيبة.

عندما أتى الأطباء أعلنوا وفاتها إثر أزمة قلبية لم يتحمل قلبها الضعيف الفرحة الطاغية التي انبعثت فيها بنجاة زوجها من الحادث فسقطت في مكان وقوفها ميتة.

ميخائيل زوشنكو

Mikhail Zoshcheno

ولد ميخائيل زوشنكو Mikhail Zoshcheno في عام 1895 لأب رسام من أوكرانيا وأم روسية تشتغل بالتمثيل. درس القانون بجامعة سانت بطرسبرج، ولكنه انقطع عن الدراسة ولحق بالجيش ورقي إلى مرتبة ضابط وفي عام 1921 التحق بجماعة أدبية تنادي باستقلال الفن عن السياسة.

اتسمت أعماله القصصية بروح الدعابة والسخرية اللاذعة. حظيت مجموعاته القصصية مثل مواطنون مبجلون (1926) Esteemed Citizens باستحسان جمهور القراء لما لمسوه فيها من صدق التصوير لحياة المواطن العادي ومعاناته وروح الفكاهة والسخرية الخفية التي تخفف من صدمات الحياة القاسية. توفى زوشنكو في عام 1958.

الحمام الشعبي

بقلم: ميخائيل زوشنكو

يقال يا مواطن إن الحمامات العامة في أمريكا مثال في الدقة وحسن التنظيم فتجد المواطن هناك على سبيل المثال يدلف إلى الحمام في هدوء ويودع ملابسه في صندوق خاص ثم يمضي لطيته لا يحمل لأمرهما، ولا يؤرقه سرقة ملابسه أو ضياعها، كما لا يكلف نفسه مشقة المطالبة بتذكرة يسترد بها ملابسه بعد أن يفرغ من الاستحمام.

بيد أنك لا تعدم أحياناً مواطناً أمريكياً توسوس الشكوك في صدره فتجده يدنو من عامل الحمام ويعطف نحوه رأسه قائلاً له بلهجة هامسة ملؤها الرجاء: كن على تمام اليقظة واستحضر حذرك أن يسرق أحدهم ملابسي، بيد أن الأمر لا يجاوز هذه الوساوس التي تستأثر بعقل مواطن قلق مبلبل موزع النفس.

إن المواطن الأمريكي يأخذ حمامه وهو يستشعر نسائم ارتياح عميق تهفو على نفسه ثم يتحول عن موقفه ويمضي نحو الباب فيسلم له العامل ملابسه التي تخطف الأنظار بنظافتها بعد أن غسلت بعناية ونظمتها المكواة أما حذاؤه ذو الرقبة فقد لمع حتى غدا يتيه ببياض أنصع من الثلج، كما أنهم يرفأون ملابسه الداخلية الرثة حتى يختفي ما فيها من خروق لدرجة تعز على التصديق ولذا فإن المواطن الأمريكي يتملى الحياة صفاء خالصاً فتجده وقد طاب بحياته نفساً وتنور وجهه بالارتياح بعد أن يفرغ من حمامه.

إن الحمامات الشعبية في بلادنا ليست منفرة لحد الازدراء إلا أنها لا تبرأ من العيوب كلية مثل حماماتهم، ورغم هذا بمقدورك الاستحمام في حماماتنا.

إن الشائبة الوحيدة التي تشوب النظام المطبق في حماماتنا تتعلق بالتذاكر. ففي يوم السبت الماضي ذهبت إلى أحد الحمامات العامة (إذ لا يسعني الذهاب إلى أمريكا كلما راودتني الرغبة في الاستحمام) وسلمني العامل تذكرتين بأرقام مطبوعة عليهما: إحداهما لاسترداد ملابسي والأخرى لمعطفي وغطاء الرأس.

بيد أنني لبثت في مكاني وقد هيمن علىّ شعور بالارتباك والحيرة. رحت أجيل في المكان نظرة زائغة فلم أر سوى كروشاً وسيقاناً عارية. ساءلت نفسي في حيرة: كيف تسنى لهؤلاء الرفاق تدبير حالهم وليس ثمة جيوباً يدسون فيها تذاكرهم. تضاربت في رأسي التخمينات، ووجدت نفسي أغوص في دوامة لا فكاك منها فمن الواضح أنه لا يسع المرء ربط التذكرة بلحيته! تفتق ذهني عن حل استهواني بطرافته. ربطت تذكرة بكل ساق أن أفقد كلتا التذكرتين دفعة واحدة.

سرت متمهلاً في هوادة ورفق صوب باب الحمام. ورحت أجول متسكعاً في القاعة وقد بدت مشيتي مضطربة مخلخلة كأني عاجز عن مبادئ المشي الأولية مفرجاً ما بين ساقي خيفة ضياع إحدى التذكرتين أو كليهما، والهواء يهفو بتذكرتي حول ساقي فراحتا ترفرفان كغسيل منشور في الشرفة. تلكأت طويلاً في جنبات الحمام أقلب عيني في القاعة المكتظة بالأجساد العارية باحثاً عن طست مهمل إذ أيقنت في قرارة نفسي أن الاستحمام دون أن أخضخض رجلي في الماء بأحد الطسوت قمين بأن يفسد عليّ بهجتي ويكدر عليّ صفوي.

شخصت ببصري إلى أحد المواطنين وقد انكب على غسل جسده بهمة عالية مستخدماً ثلاثة طسوت كان يقف في أحدها منتصب القامة كأنه عسكري في طابور، في حين استقرت قطع الصابون وأحجار الحك وألياف التدليك في طست ثان، أما الطست الثالث فكان يرفعه قابضاً على حافته بيده اليسرى أن ينقض عليه أحد المواطنين فيخطفه ويمضي دون أن ينتحل عذراً لهذا السلوك غير القويم. قبضت على حافة الطست الثالث وجذبته نحوي جذبة قوية بيد أنه أحكم قبضته عليه وقد تطاير شرر الغضب من حدقتيه وصاح بي بصوت كالرعد:

ما الذي ترمي إليه؟ أسولت لك نفسك السطو على طسوت الآخرين؟ لن يسرك بطبيعة الحال أن أضربك بهذا الطست ضربة صادقة في وجهك فأصيرّ أنفك في قفاك!

فصحت في وجهه وصوتي يرعد من الغضب: لقد انقضى عهد القيصر ولذا لا يسعك أن تكشر للناس عن أنيابك وتنهال عليهم ضرباً بالأحواض يا لها من أنانية تستثير الامتعاض والاشمئزاز! فمن حق الآخرين الاستحمام أيضاً. أليس كذلك؟

فنحن لسنا في قاعة مسرح يحتجز كل منا لنفسه مقعداً ويستميت في الذود عنه.

زم شفتيه احتقاراً وولاني ظهره بعد أن عالنني وجهه باستيائه لجفاء القول. تسلط على انفعالاته بإرادة من حديد وواصل الاستحمام بهمة عالية.

بت مقتنعاً أن لا فائدة من الانتظار حتى يفرغ من مهمته فهو لن يتزحزح عن موقفه قيد حبة رمل وسيواصل تدليك جسده برغاوي الصابون ثلاثة أيام على الأقل دون انقطاع كي يبرهن على قدرته الخارقة على التكيف مع تحديات الواقع، واللياذ بالسعادة المتاحة نافضاً عن ذيله رواسب الأكدار.

درت على عقبي بحركة عصبية ورحت أسير بخطوات ثقيلة مهيض الجناح، يمضني الشعور بالهزيمة والإخفاق والخيبة. بعد حوالي ساعة من التجوال في جنبات القاعة الفسيحة رأيت مواطناً يستحم وقد لاحت في عينيه نظرة شاردة تغيب بصاحبها عما حوله وقد استقر طست فارغ نظيف على كثب من قدميه. لا أذكر إن كان ينحني

في هذه اللحظة الحاسمة ليلتقط قطعة الصابون من فوق الأرض أم كان مستسلماً بكليته إلى التأملات والأحلام.

توثبت للانقضاض على الفرصة السانحة بعزم لا يلين، واستوليت على الكنز النفيس دون حياء أو خجل. وهكذا بت أمتلك طستاً مثل بقية الرفاق.

بيد أن أحداً لم يبد استعداداً للتزحزح عن موقفه كي يفسح لي مكاناً أضع طستي فيه. انطويت على أساي في صمت. كنت احترق توقاً إلى الرقود في الطست، بيد أنني عالجت هذه المسألة بالحكمة وحاولت أن أنفي عن نفسي نوازع الشقاء وأسباب الكدر.

ظللت واقفاً وأنا أقبض بيدي اليمنى على حافة الطست وشرعت في تدليك جسدي برغاوي الصابون باليد اليسرى.

كان حشد من الخلق يحدق بي وقد نشطوا بهمة لا تعرف الكلال وعزم لا يلين لغسل ملابسهم المتسخة. كان أحدهم يغسل بنطلونه وقد اشتعل الحماس في عروقه ناراً، والآخر يدلك ملابسه الداخلية بالفرشاة وقد أخذته الحماسة واشتد به الانفعال، في حين جثا ثالث على ركبتيه وهو يعتصر قميصه من الماء ثم ينفضه منه، فينضح على الرفاق من حوله. ولذا لا عجب أن وجدت جسدي ووجهي تغشيهما طبقة غليظة من غبار وقذارة بعد أن فرغت من الاستحمام. كان رشاش الماء يطير في وجهي وهم ينفضون أيديهم من الماء أو عندما يقع الكوز من يد أحدهم في طست فيه ماء من غسالة أوساخ الثياب في حين كانت تند عن أفواههم زفرات كالفحيح وعن أقدامهم ارتطامات كخشخشة زواحف نغصت على صفوي إذ كانت تغطي على صوت قطعة الصابون وهو ما كان يستهويني سماعه وهي تحتك بجسدي وأنا أعاود تنظيفه مما غشيه من رشاش ماء وسخ.

وددت لو أنهم غرقوا في هذا الرشاش من الماء القذر، بسطت ذراعي في قنوط وقلت ملتمساً الطمأنينة لنفسي: سأنهي حمامي في البيت مضيت إلى حجرة تغيير الملابس محزوناً كاسف البال. تناول عامل الملابس التذكرة مني وسلمني الملابس تجلت في عيني نظرة إنكار وأنا أتفحصها بعناية. بثثت حنقي في نبرات صوتي وأنا أقول عابساً: كان في بنطلوني خرق في هذا الموضع. انظر إلى هذا الخرق في هذا البنطلون في موضع آخر. إنه ليس بنطلوني. فقال وهو يرمقني باستغراب: إن السلطات لم تعهد إلينا بمهمة تفقد مواضع الخروق في الملابس فنحن لسنا في قاعة مسرح كما تعلم. ارتديت البنطلون يمضني شعور أليم بالحزن والقهر ثم طلبت إليه أن يسلمني معطفي فأمرني بأن أعطيه التذكرة التي تحمل الرقم.

تذكرت فجأة التذكرة المربوطة بساقي. خلعت بنطلوني، ونظرت إلى ساقي فرأيت قطعة من الخيط ملفوفة حول ساقي، بيد أنني لم أجد أثراً للتذكرة التي

اكتسحتها بطبيعة الحال تيارات ماء من غسالة أوساخ الثياب التي كانت تترشش على ساقي العاريتين.

قدمت إلى العامل تلك القطعة من الخيط بيد مرتعشة ورجوته أن يقبلها دليلاً على حقي في المعطف، بيد أنه قال مدارياً ضيقه بابتسامة لا لون لها: إننا لا نسلم المعاطف إلى المواطنين في مقابل قطع من الخيط فأي مواطن بمقدوره أن يقتطع لنفسه عدداً من قطع من الخيط ويطالبنا بتسليمه عدد مساوْ من المعاطف، وعندئذٍ لن يفي عدد المعاطف التي بحوزتنا بمطالب مواطن واحد يحتذي حذوك وينهج على منوالك! فلتنتظر حتى ينصرف الجميع ثم أسلمك المعطف الباقي.

فقلت بانفعال لم أستطع كبحه: وماذا لو لم يتبق سوى معطف قديم متهرئ لدرجة تستثير الرثاء؟! فنحن لسنا في قاعة مسرح فلتسلمني المعطف الذي يحمل العلامات الآتية: أحد الجيبين ممزق، والآخر انتزع من مكانه أما بالنسبة للأزرار، فالزرار العلوي في موضعه لم يلحق به أذى أو ضرر، في حين يساورني شك في وجود أزرار سفلية.

سلمني معطفي بعد أن عاين باقي المعاطف، بيد أنه رفض أن يأخذ القطعة من الخيط التي مددت بها يدي.

ارتديت ملابسي وخرجت إلى الشارع وما أن خطوت خطوتين أو ثلاث حتى تذكرت بغتة أنني نسيت قطعة الصابون في القاعة.

درت على عقبي ومضيت إلى الداخل. بيد أن العمال في حجرة تغيير الملابس أصروا على أن أخلع ملابسي قبل أن أدلف إلى القاعة.

صاحوا بلهجة آمرة حادة كضرب الفأس في الحجر: اخلع ملابسك. رنوت إليهم بطرف واجم ثم قلت بصوت تمزقه الشكوى: ليس بمقدوري خلع ملابسي لثالث مرة يا رفاق. فنحن لسنا بأحد قاعات المسرح كما تعلمون ردّوا علىّ المبلغ الذي ابتعت به قطعة الصابون كي أنصرف في سلام بيد أن هذا الاقتراح وقع من نفوسهم موقع الإباء والرفض. غادرت الحمام للمرة الثانية وأنا أجر أذيال الخيبة والإهانة.

ربما يتساءل القارئ بطبيعة الحال مدفوعاً برغبة عارمة لإرضاء حب استطلاع جنوني عن اسم هذا الحمام الشعبي بيد أنني أجيب عن تساؤلاته قائلاً إنه حمام عادي مثله في ذلك مثل آلاف الحمامات الأخرى لا يكلف من يغشيه للاستحمام به سوى عشرة كوبكات.

إيزاك بابل

Isaac Babel

كاتب روسي ولد في مدينة أوديسا في عام 1894.

في عام 1915 رحل إلى مدينة سانت بيتر سبرج حيث قاسى شظف العيش والهوان. نشر له جوركي إبان تلك الفترة العصيبة من حياته قصتين قصيرتين.

انخرط بابل في صفوف الجيش الأحمر وشارك في القتال مع كتيبة الفرسان أثناء سنوات الثورة البلشفية وما أعقبها من حرب أهلية طاحنة.

حظيت باكورة أعماله القصصية بالمديح والثناء مما شجعه على نشر مجموعته القصصية حكايات من أوديسا (1924) Odessa Tales وكتيبة الفرسان الحمراء (1926) Red Cavalry كما كتب العديد من المسرحيات وسيناريوهات أفلام سينمائية كثيرة.

بيد أنه رغم قراره بهجر الكتابة الأدبية في عام 1934 والتي كان يثار حولها لغط ألقى القبض عليه بعد ذلك بخمس سنوات، وزج به في أحد معسكرات الاعتقال التي يعتقد أنه لقى حتفه فيها في عام 1940 أو 1941.

إلهـــام

للكاتب: إيزاك بابل

كنت قد آويت إلى فراشي وقد أثقل الكرى جفني وغشيت قلبي سحابة مظلمة من الوحشة والكآبة عندما صك مسمعي صوت طرق على الباب. دلف ميشكا إلى الداخل ليقرأ عليّ القصة التي فرغ من كتابتها. بادرني قائلاً: أغلق الباب ثم أخرج زجاجة نبيذ من جيبه قائلاً وقد تهلل وجهه في سعادة شاملة: لقد انتهيت من كتابة روايتي إنها عمل جد رائع. إنني أدعوك إلى شرب نخب هذا الإنجاز المجيد، طالعني بوجه تعلوه صفرة شديدة ولمحت جبينه يتفصد عرقاً بارداً.

واصل قائلاً وعصافير النشوة تزقزق في قلبه: أولئك الذي يؤمنون أن السعادة أمل كاذب حمقى دون مراء فالمرء يهتز طرباً من نشوة الإلهام، لقد انكببت طوال ليلة أمس على الكتابة حتى طوى الليل ستائره وأدركني الفجر ثم خرجت أتمشى في طرقات المدينة إذ أنه عندما تنشب خيوط الفجر الزرقاء في الظلماء وتهب نسائم مرطبة ببرودة حنونة منعشة فإن المدينة بطرقاتها التي تكاد تخلو من السابلة وقد تسربلت في هدوء شامل تبدو متلفعة برداء من الغرابة بما ينداح في جوها من موجات من الأسرار الخارقة ويتراءى أمام ناظري شبح النهار وهو يتهادى صوبي يقطر بهاء وجلالاً وجمالاً فلنشرب نخب هذا الفوز السعيد إنني عظيم الثقة في أن هذه القصة تمثل منعطفاً هاماً في حياتي.

فض سدادة الزجاجة وملأ كأساً وعل منها جرعة. سرت في أطرافه رجفة من الانفعال. كانت يداه تلفتان النظر ببياضهما الناصع، ورقتهما ونعومتهما، ورقة الأصابع ورشاقتها.

واصل ملتمساً الطمأنينة لنفسه: لن يرفض أي ناشر أن يتعهد طبع الكتاب فهم في زمننا هذا يطبعون النفايات إلا أن العامل الحاسم يتمثل في امتلاك المرء النفوذ الضروري.

لقد تلقيت وعداً من سوخوتين بأن يدبر جميع الأمور بعين الحكمة. قلت له بصوت لا يخلو من رنة الأسف: عليك يا ميشكا أن تمد لنفسك فسحة التدبر ومراجعة ما كتبت. إذ أنك لم تحذف شيئاً.

قطب فيما يشبه الاستياء وقال: اللعنة على المراجعة والتنقيح فسوف يستغرقان وقتاً طويلاً.

إنني أتجرع في موطني كما تعلم الذل والأسى بصبر، إلا أنني أرمق مستقبلي بعين الاستبشار فلن ينقضي العام حتى أتسنم ذروة المجد فكما يقول المثل الفرنسي

فإن من يقيض له الفوز في النهاية هو الذي يضحك ضحكات رنانة صاعدة من قلب جذل.

وسوف يقرون بعبقريتي ويسعون إلى مرضاتي متلثمين بقناع زائف من الأدب والوداعة وهم يتزلفون لي في خسة وضراعة.

كان على وشك أن يفرغ ثمالة الزجاجة في القدح الأخير.

قلت له: كف عن الشراب يا ميشكا.

- إنني في حاجة إلى مراودة نشاطي وإنعاش شجاعتي بكم كأس من النبيذ. دخنت الليلة الفائتة أربعين سيجارة.

أخرج كراس ضخمة من طيات ملابسه خطر لي ببالي أن أسأله أن يتركها لي لأقرأها على مهل بيد أنني عندما لمحت جبينه وقد طفر في صفحته الشحوب وبرز أحد أوردته النافرة ورباط عنقه الذي لم تنظمه مكواة واضطرب اضطراباً يستدر الرثاء، تملكتني روح دعابة فقلت: هيا يا ليو تولستوي اقرأ على قصتك ولكن لا تنس أن تذكرني في سيرتك الذاتية عندما تدونها.

افتر ثغره عن ابتسامة ظفر وارتياح قائلاً: يا وغد إنك لا تقدر قيمة صداقتي على الإطلاق.

جلست غارقاً في مقعدي الكبير وأنا أصغي إليه بكل جوارحي. جلس ميشكا مقوساً فوق كرسيه وهو ينظر في الكراس المفتوح على حجره. هبط على الحجرة صمت كالصخرة وانتشر ضوء المصباح الواني في الحجرة كالضباب. خرق ميشكا الصمت قائلاً وهو يتمالك أنفاسه المضطربة: في هذه القصة حاولت أن أنجز شيئاً مبتكراً تتحلق حوله هالة مبهمة من القداسة وتنداح في أجوائه موجة من الأسرار الخارقة، يفيض رقة وصفاء ويتسربل في غلالة رقيقة من الإيحاءات. إن قلبي ينسحق تحت الأسى والشجن لجفاء المشاعر وعدم مراعاة حساسية الآخرين في هذا العالم الذي يخلو من العطف والشفقة.

قلت بنبرة تشي بالرجاء: أفرغ من المقدمات.. أشرع في القراءة جمعت انتباهي في أذني لم تكن متابعته بالأمر الهين كانت قصة رديئة تبعث أحداثها في النفس بالغ السأم، وتدور حول بائع في حانوت يقع في هوى راقصة بالية، فيمضي جل وقته في التسكع تحت نافذتها ثم ترحل الراقصة فيكاد الكدر يزهق نفسه، ويهيمن عليه شعور بخيبة الأمل، ويتوارى كل جميل في دنياه. كَلَّ عقلي فلم أتابعه. كانت كلمات القصة تغشيها الركاكة والابتذال، انزلقت الكلمات فوق وعيي دون أن تترك أثراً كالماء ينساب فوق صخرة ملساء منحدرة.

أخفقت الرواية إخفاقاً مزرياً في جلاء طبائع الشخصيتين الرئيسيين وملامحهما النفسية. خطفت من ميشكا نظرة فرأيت عينيه تتألقان ببريق حماس جنوني وهو يسحق بأنامله سيجارة مهملة استقرت بين أصابعه لم يشعلها بعد. أضاء وجهه الذي كانت تلوح فيه خيبة واضحة فاعتراه هزال وذبول لدرجة تستثير الرثاء أبرزا ضخامة أنفه وانتفاخ شفتيه الممتقعتين.. أضاء بغتة بنشوة الخلق وبهجة الاعتداد بالذات فجعل يقرأ على مهل وفي تؤدة حتى تولاني ضيق كاد ينشق له صدري.

وعندما فرغ من القراءة دس الكراس في جيبه بلهوجة، وشخص ببصره إلى دون أن ينبس بكلمة.

خرجت من صمتي قائلاً في نبرة كلها مرارة: أنت تعلم يا ميشكا أن ما كتبت يحتاج إلى مراجعة. إن فكرة القصة جد مبتكرة.

كما أن رسم شخصية البطل ينضح برهافة الحس ورقة الشعور، إلا أن الأسلوب – كما تعلم – يحتاج إلى المزيد من الصقل والتهذيب.

قال وقلبه يغوص في أعماق من الكآبة: لقد ظللت ثلاث سنوات مكباً على تأليف هذا العمل في شبه سخرة. إنني أقر أن ثمة أجزاء في القصة تفتقر إلى طلاوة الأسلوب وروعة البيان.. ولكننا عندما ننظر إلى القصة على الإجمال..

تكشف له جانب من الحقيقة المرة ارتعشت شفته السفلى وذقنه كالطفل إذا أوشك أن يفحم بالبكاء. تقوس فوق كرسيه مكباً على إشعال سيجارة لفترة جد طويلة. ساد صمت كالبكاء الأخرس حتى قطعته وأنا أقول مدارياً حزني الخفي بابتسامة: إن ما كتبت يعد إنجازاً رائعاً إلا أنك لا تزال تجهل معرفة بعض جوانب التقنية الروائية، ومع ذلك (مضيفاً بالفرنسية) فقصتك لا غبار عليها يا إلهي! شد ما تصطرع الأفكار في رأسك!.

دار ميشكا على عقبيه ونظر إليّ بعينين تتألقان بالفرح والغبطة وتعكسان نظرة وديعة حالمة كنظرة طفل تقطر محبة وسذاجة وغرابة عن هذا العالم.

قال بعجلة ولهوجة: فلنخرج لننشق الهواء الرطيب، إني أكاد أختنق في جو هذه الحجرة.

خرجنا معاً نتمشى في طرقات المدينة التي بدت خاشعة تحت ستار الظلام بعد أن أسبلت المساكن جفونها، وأقفرت الطرقات إلا من نسمة شاردة. ضغط ميشكا على يدي بشدة قائلاً: إنني على ثقة من تمتعي بموهبة الكتابة. والدي ينصح لي بالبحث عن عمل بيد أنني أتفيأ غاية واحدة أريد بلوغها ففي خريف هذا العام سوف أذهب إلى بتروجراد. وقد وعدني سوخوتين بأن يدبر جميع الأمور المتعلقة بطبع القصة.

صمت ريثما أشعل سيجارة جديدة من سيجارة كان قد أوشك أن يفرغ من تدخينها ثم واصل وهو يتمالك أنفاسه المضطربة: إنني أحس أحياناً بينبوع الإلهام يتفجر في صدري لحد الإيلام، فيداخلني يقين لا يتطرق إليه شك في مثل هذه اللحظات بأن قراري بتكريس جل حياتي للكتابة هو عين الصواب. إنني أنام نوماً متقطعاً شديد العذاب، تدهمني فيه الكوابيس دون رحمة فتجدني وقد مسني السهاد، وجثمت على قلبي الوحشة، وأظل أتقلب على فراشي ذات اليمين وذات الشمال وأنا أتناوم وأرخي أعضائي وأتوهم الكري واستدنيه بكل ما أعرف من وسيلة حتى تأخذني سنة من النوم بعد ثلاث ساعات من العذاب المضني وعندما أنهض من نومي أشعر في رأس بدوي هائل وكأن مائة مطرقة تدق مخي. إنني لا يسعني الكتابة إلا عندما يسدل الليل سدوله، وأجدني وقد خلوت إلى نفسي بحجرتي المتلفعة بالهدوء الشامل، واشتعلت بجوانحي نيران الإلهام وتوهج ذهني بالعبقرية. لقد كان ديستوفيسكي يكتب دوماً أثناء الليل، ويصب من السماور في أقداح الشاي التي يحتسيها دون انقطاع بيد أنني بدلت بالشاي السجائر فتجدني في حجرتي وقد تلوت حول رأسي سحابات التدخين الشاحبة.

وعندما وصلنا إلى منزله لاح وجهه على ضوء مصباح الشارع وقد طفر في صفحته الشحوب واعتراه الهزال وإن تهلل في سعادة شاملة وتألق بنشوة لا يعتورها أدنى خمول.

قال وهو يضغط على يدي حتى كاد يعصرها: لعنة الله عليهم أجمعين سوف نبرهن لهم.. فلا تحمل للأمر هما، ففي بتروجراد كل إنسان يحقق ما يصبو إليه من نجاح.

فقلت بلهجة تدل على العزم: ورغم ذلك على المرء أن يسعى يا ميشكا.

ابتهج وجهه بابتسامة عريضة، وقال بلهجة مفعمة بالثقة بالذات تنم عن أستاذية ليس وراءها مطمع لعالم: عزيزي ساشكا.. إنني لست بالشخص الأحمق فإنني فسيح الأفق في خبرتي بالحياة. فلتقتلع من رأسك الأفكار السود.. فلن أستنيم كالآخرين إلى سبات الطمأنينة العذب بما حققته من إنجاز. وحتى يطمئن قلبك تعال غداً لنلقي نظرة على القصة بغية المراجعة والتمحيص.

- حسن.. سوف آتي غداً.

صافحته مودعاً عدت إلى البيت منقبض الصدر وقد ران على نفسي كدر خانق فبدت لي الدنيا صفراء كريهة لا تحتمل ولا تعاشر.

جيمس ستيفنس

James Stipens

ولد جيمس ستيفنس في أحد الأحياء الفقيرة في دبلن في عام 1882، انقطع عن الدراسة ولكنه نهل من منابع المعارف بإدمان القراءة. حظي كتابة الموسوم بعنوان: "وعاء الذهب" The Crock of Gold بجائزة بوليتزر عام 1912.

رغبة صادقة

للكاتب: جيمس ستيفنس

ارتفعت حرارة اهتمامه لدرجة الغليان. استوى في جلسته في اهتمام وراح يقص على زوجه الحكاية وهو يذوب في دفقة إحساس باتت معه مقتنعة بأن عقله قد مسه شيء وأن أعصابه قد اضطربت واختل توازنها.

كان يغلب دوماً الحكمة والعقل على الهوى، فكان يمد لنفسه فسحة التدبر والمراجعة ويستعرض كافة الاحتمالات قبل أن تصدق عزيمته على قرار.

كان يعمل فكره في جميع شئون حياته العائلية والعاطفية، ويتسلط على انفعالاته بإرادة من حديد فكانت تعرف فيه سلامة التفكير ونفوذ البصيرة وقوة الحجة لذا دهشت لما طالعته في وجهه من انفعال وحماس وهو يقص عليها حكايته، وانعقد لسانها حيرة وارتباكاً.

تكلفت الاهتمام وراحت تجاريه في وهمه وتسايره على اعتقاده. لم تكن مقتنعة بروايته، ولم يجتاحها الحماس حيال غرابة وشذوذ أحداثها وإنما كانت مدفوعة بالرغبة في مجاراة الحماس الذي اشتعل في عروقه ناراً.

فالمرأة ترحب بالفطرة بأي حدث يجتاح مستنقع حياتها الراكدة فيتفجر عن ينابيع حارة، فنجدها تهتبل هذه الفرصة لتنخرط في الحديث في ثرثرة هاذية لترضى حب استطلاع عقيم جنوني.

جلست إلى جانبه وقد استجمعت حواسها للإصغاء وهذه هي الحكاية التي قصها عليها.

عندما كان يمضي إلى المطعم لتناول غداءه سائراً فوق الطوار ابتدر أذنيه أزيز سيارة قادمة من الخلف تندفع كالإعصار في الطريق المكتظ بالسيارات والمارة.

ثمة رجل كان يسير أمامه فوق الطوار على مبعدة خطوات قلائل منه، اندفع الرجل إلى عبور الطريق بغتة دون أن يلتفت يمنة أو يسرة في حين كانت السيارة تنقض عليه كالقذيفة.

وثب زوجها وثبة هائلة إلى الأمام وانقض عليه وأمسكه بيسراه وجذبه إلى الخلف بشدة فسقط على الطوار عوضاً عن أن تصدمه السيارة التي مرقت كالسهم وهي تصرخ بآلة التنبيه بصوت يصم الآذان. قال له زوجها الذي يستهويه القوالب اللفظية التي يستخدمها العوام وهو يتمالك أنفاسه المضطربة: لولاي لكانت صدمة

السيارة قد تركتك الآن في ذمة المنون، أو كدجاجة مذبوحة تندفع مبسوطة الجناحين على حين يتدفق الدم من عنقها مستصفياً آخر قطرات الحياة!.

سارا جنباً لجنب فوق الطوار يعلوهما البشر ثم عطفا على أحد المطاعم وتناولا الغداء معاً بعد أن وثقت المغامرة العلاقة بينهما فرفع حجاب الكلفة بينهما.

جلسا لمدة طويلة بعد الغداء يتجاذبان الحديث ويدخنان بشراهة وقد تلوت حول رأسيهما سحابات التدخين الشاحبة، منهمكين في حديث لم تكن تتصور أن بمقدور زوجها الانغماس فيه حتى لعشر دقائق فقط.

ثم افترقا بعد أن أعرب زوجها عن رغبته في تكرير اللقاء في اليوم التالي، بيد أن الرجل ابتسم دون أن ينبس. لم تند عنه كلمة توحي بالرفض أو القبول.

خاطبها زوجها والبشر يسجع في صدره: أتمنى أن يجئ في موعده. انقدحت في قلبه نشوة الحماس، وأسكرته نشوة متحفزة للمغامرة ودق أبواب المجهول. تشوق إلى معرفة المزيد عن جو هذا العالم ووجد نفسه يتيه في الحلم مورد الخدين من الفرح غائصاً في لجة من الخواطر. اعتلجت اللهفة في صدره واشتاق إلى هذا العالم الساحر.

شرح لها بإيجاز الجو المبهم من القداسة التي انداحت في ثنايا حديثهما ففي حين أنه كان – أي الحديث – عقلانياً محضاً إلا أنه استثار أشواقه وأشعل خياله بقدر أكبر مما وجد في الجانب الانفعالي للدين الذي طوت العادة معجزاته فهجره في صمت.

حاول أن يصف لها رفيقه بيد أن الذاكرة خانته فلم يسعه أن يستحضر في ذاكرته صورته: أكان طويل القامة أم قصيرها، بديناً أم نحيلاً، أشقر أم داكن السمرة؟ بيد أنه فصل القول في وصفه للعينين بعض التفصيل، إذ خيل إليه أنهما عينان لم ير لهما مثيلاً من قبل في وجه بشر.

بيد أنه استطرد وهو يهز رأسه هزة غير القانع أن عينيه لا تفترقان في هيئتهما عن عيون الآخرين إلا أن المرء يعجب غاية العجب للبريق النفاذ الذي تشعهما.. عينان تلوح فيهما نظرة تنطق بالسيادة والقوة لا يعتورها ارتباك أو خجل، تعكس الإعجاب والتحلي ببصيرة نافذة تهتك حجب الغيب. ضحكت بسرور ثم قالت: لقد وقعت في هواه بلا ريبّ.

ورغم أنه كلف نفسه بعض الجهد في توضيح ما غمض من أمره لها إلا أنه وجد نفسه يتردى في هوة الحيرة والعجز. سرعان ما وجدت نفسها تستسلم بكليتها مثله للأوهام والأحلام كصبي يطالع أحد قصص الأشباح والعفاريت التي تثير أشواقه لدرجة الاشتعال.

قال لها كاظماً انفعالاته: تساءل عما أحترق توقاً إليه.. عن معقد أملي الذي يضئ قلبي كالإلهام.

قطب في اهتمام ثم واصل: دهشت دهش من أخذ على غرة من حيث لم يتوقع فركبني الارتباك ودوختني الحيرة دون الجواب. جلسنا نحواً من نصف الساعة نبحث عن إجابة مستعرضين كافة الاحتمالات والأحلام الرائعة. خطر على بالي الأفكار المعتادة سارحاً بعيني حالماً فخطر على ذهني بطبيعة الحال لأول وهلة نعمة الثراء.

إن القوالب اللفظية المعتادة والأقوال المأثورة تستأثر بعقولنا لدرجة تفوق التصور، ولذا عندما يوجه إلينا هذا السؤال فإن الإجابة تؤاتينا بداهة وارتجالاً.

"الصحة والثروة والحكمة" إن الإنسان بطبيعة الحال تتوزعه المطامع وتتعدد رغائبه ولذا كاشفته برغبتي في جمع ثروة طائلة كأول رغبة تخطر على قلبي.

وقع قولي من نفسه موقع التأييد والاهتمام وقال إنها رغبة جديرة بالنظر.

بيد أنني ما لبثت أن تكشف لي أن ما أبغي حقاً ليس المال.

فقالت له زوجه بلهجة تنم على العتاب: إن حاجة المرء للمال لا تنقطع ما دام حياً.

فأجاب: هذا صحيح إذا نظرنا إلى الأمر من جانب واحد. بيد أنني عندما مددت لنفسي حبل التفكير أيقنت أننا لا نحتاج المال، فإننا لم ننجب أطفالاً هذا إلى أن رغباتنا المتواضعة والغايات التي نتغيّاها يمكن تحقيقها في حدود ما نملك من مال. كما أننا ميسورو الحال، فأرباحنا من الأسهم والسندات سوف تمكننا من العيش في رغد من الحياة حتى تطوي قبضة الزمن الصفحات الأخيرة حتى لو انقطعت عن عملي وهو ما لا أنتوي فعله. ولذا تبين لي أن المال لا ينطوي على فائدة لنا.

تمتمت زوجه قائلة بصوت خفيض كأنما تهامس نفسها "مفهوم مفهوم.. ولكن".. ثم لاذت بالصمت وقد لاحت في عينيها نظرة حالمة يشوبها شيء من الحسرة على العيش الرغيد والحياة الرهيفة الطيبة التي تجلت لمخيلتها.

أمَّن على قولها وقد افتر ثغره عن ابتسامة: ولكن.. ولكني لم أجد في نفسي رغبة في أي شيء. غير أني استدركت قائلاً له من فوري كأنني نادل يقرأ ثبتاً: الصحة والحكمة إلا أنني عندما حللت موقفي من منظور العالم الذي يحيط بنا أدركت أن ما أنعم به من صحة ومعرفة بأحوال الدنيا لا يقل بأي حال من الأحوال عما ينعم به من حولي من الصحاب والرفاق.

هذا إلى أنني إذا عزمت على الظفر بالحكمة فسوف أفوق أقراني حكمة وحصافة فتطوقني الوحدة كالقبر باقي سنوات عمري.

تفكرت زوجه في وجوم ثم قالت: هذا هو عين الصواب. إن شعوراً بالارتياح يخامرني لإحجامك عن طلب الحكمة وزهدك فيها هذا إن لم تطلبها لكلينا.

فصل بينهما الصمت ملياً ثم قال وهو يدعك ذقنه بيده متفكراً: سألته في النهاية عما ينصح لي بنشدانه، ولكنه صارحني بعجزه عن إسداء النصح لي بهذا الصدد قائلاً: إن وراء أي موقف أو قرار تكمن رغبة تساور المرء تدفعه دون هوادة لاتخاذه. ولذا عليك أن تستبطن ذاتك لتعرف الرغبة التي يخفق بها قلبك، سألته بعد ذلك عن رغبته التي كان سيكاشفني بها لو كان الأمر معكوساً وكنت أنا السائل. لم أسأله – كما بينت له – مدفوعاً بالرغبة في اصطناع إجابته لنفسي، بل كان حب الاستطلاع هو دافعي، فأجابني بأنه لم يكن ليطلب شيئاً. بغتتني إجابته، استولت علىّ الدهشة لأول وهلة وركبني اضطراب كاد يزلزل أركان نفسي.

بيد أن ما أعجب له أشد العجب هو ما استشعرت من نسائم ارتياح عميق تهفو على نفسي عندما أمعنت النظر في هذه الإجابة وهممت باصطناع إجابته لنفسي.. فقالت وهي تزفر زفرة المتحسر: أوه.. شدّ ما يحزنني هذا!

.. واصل حديثه في حماس قائلاً: لولا أن خطرت لي فكرة ببالي وجدتني أساءل نفسي: إنني في الثامنة والأربعين ميسور الحال. أتمتع بصحة جيدة يغبطني عليها من يماثلونني في السن، وأغلب الحكمة والعقل على الهوى قدر الاستطاعة. فما هو الشيء الذي أملكه ولا أجد لنفسي بُداً من أن أفارقه رغم أنني أود الاحتفاظ به؟ عندها أدركت أن الشيء الذي لا يني عن الإفلات من يدي رويداً رويداً ليختفي دون رجعة هو عامي الثامن والأربعون. تمنيت لو تشبثت بعامي هذا لا أفارقه ولا يفارقني حتى يدركني الموت.

صمت ملياً ثم قال: لم أكن مدفوعاً بالرغبة في أن أخلد وأحطم كأس المنون لأنني إن تحققت لي هذه الرغبة فسوف أجد نفسي في عزلة على شاطئ الحياة أتجرع وحدتي حتى الثمالة، وأعاني الوحشة حتى أضيق بالحياة لحد القرف وأنشد الموت كما تُنشد الخمر المعتقة.

كنت أنشد فحسب حياة تخلو من نوازع الشقاء وأسباب الكدر كالحياة التي أحياها الآن في عامي الثامن والأربعين.

قالت زوجه بنبرة لا تخلو من امتعاض: كان ينبغي أن تحجم عن إبداء هذه الرغبة، فهي تنطوي على ظلم بيّن لي، فأنت تكبرني في العمر الآن وفي خلال سنوات قلائل سينقلب الوضع وأكبرك أنا لحد السخف، ولذا أراها رغبة غير بريئة تهيئ لك المعاذير لخيانتي.

ـ لقد خطرت على ذهني هذه العقبة التي سرعان ما تلاشت عندما أحسست بأنني جاوزت السن التي يتردى فيها المرء فريسة لرغبة جامحة، فبحكم السن الذي

بلغته، وطباعي الرزينة الهادئة، ومغالبتي الأهواء بشكيمة العقل، فإن الشهوة الجنسية لن تستأسرني أو تستذلني ولن تسيطر علىّ النزوات العمياء التي تورد أصحابها مهالك الفتن. ولذا بدت لي رغبة لا تجافي المنطق السليم فكاشفته بها بكل حماس.

تساءلت وهي تتمادى في الاهتمام. وماذا كان رده؟

لم يقل شيئاً وافق بإيماءة من رأسه فحسب ثم راح يتحدث في أمور أخرى مثل الدين والحياة والموت والعقل البشري التي تبدو عندما أمعن فيها التفكير الآن جد مختلفة لحد التنافر، إلا أنها بدت لحظتئذ وقد انتظمها موضوع واحد. خيم الصمت حتى شقه قائلاً بانفعال لم يستطع كبحه: إنني أشعر هذه الليلة بفرحة كبرى تعز على التصديق والتأمل، أحس بأنني خلقت روح جديدة تختال بالحبور والإلهام.. بأنني أولد في عالم جديد تهزج نفسي في رحابه بسكرة التناغم مع الذات والحياة والكون.

أفاقت زوجه من ذهولها كمن يفيق من ذهول النوم ويفتح عينيه فيضيع بصره في ضوء باهر يتدفق في عينيه، لم تتمالك نفسها فضحكت حتى دمعت عيناها ثم قالت له ولما تزايل أساريرها هيئة الضحك: إن بك سذاجة لحد البلاهة وأنا لا أقل عنك حمقاً وسذاجة. إن من ينصت إلينا ونحن نتحدث بجدية مخيفة في هذا الموضوع السخيف يحق له أن يسخر منا ويهزأ بنا.

ضحك بمجامع قلبه وهو ينهض والبشر يعلو وجهه، وبعد أن تناولا عشاء خفيفاً أويا إلى مخدعهما وناما ملء جفنيهما. رأت فيما يرى النائم سفينة تبحر صوب بحار القطب الجنوبي في مهمة لم تكن تكترث كثيراً بمعرفة طبيعتها وكانت قد صعدت إلى السفينة قبل أن تغادر الميناء.

أخذتها الحماسة واشتد بها الانفعال وهي تتفقد أمتعتها وتحصى قطع الملابس الثقيلة التي يكتظ بها حقائبها والتي اصطحبتها معها لتتقي بها طقس القطب الجنوبي ذا البرودة التي تنفذ إلى نخاع العظام.

كانت الحقائب تحوي جورباً سميكاً من الصوف، وحذاءً من الجلد ذا بطانة من الشعر يتقبض سطحه تقبضاً يستدر الرثاء، وقبعة ضخمة من الجلد تشابه الخوذة مثبتة في سترة دون أكمام. كما لم تدهش لرؤية سروال من الفراء رغم اقتناعها أنه يتسع عليها أيما اتساع.

كما كانت تحمل حقيبة البيات في العراء لتبيت فيها ليلتها على سطح السفينة. كان ما تحمل من أمتعة وحقائب من الكثرة لدرجة تعز على التصديق إلا أن رفاق الرحلة كانوا يحملون مثلها عدداً هائلاً من الحقائب، وإن لم تكن تحوي أشياء مشابهة.

كانت هذه الحقائب مدار حديث لا ينقطع فوق سطح السفينة. ورغم مرور الأيام والأسابيع وهم فوق ظهر السفينة لم يتغير مجرى الحديث ولم تنقطع الثرثرة في نفس الموضوع وهو الملابس التي تقيهم من البرد القارص.

بيد أنهم لفحهم يوماً هواء بارد كلسع السياط.

همت أن ترتدي سروالها الرائع وتدس رأسها في القبعة الضخمة من الجلد لولا أن بادرها راكبو السفينة معترضين قائلين على سبيل التفسير إن عليها أن توطن نفسها على تحمل لذعة البرد، فالبرد الذي كانت تنتفض منه ساعتئذ لا يعد شيئاً قياساً إلى البرد الذي ييبس الأصابع ويكاد يتجمد ثلجاً والذي سوف يقرصها بعد ساعات قلائل.

وقع منها النصح موقع السحر، فقر منها العزم على توطين النفس على تحمل البرد قدر الاستطاعة دون أن تدثر نفسها كي تكون بمنجى أمين من لذعة البرد القارص عندما تشتد حدته فيفتر إحساسها بالألم عندما ينشب أظافره في لحمها.

مر يوم في قفا يوم فازداد الطقس برودة على نحو مطرد. راحت السفينة تتخبط فوق الموج الصاخب، وتنقذف بين الموج الثائر من قمة إلى وهدة فإلى قمة من جديد.

لاحت قمم الجبال الجليدية متلفعة بأردية بيضاء وخضراء. اهتزت السفينة وتمايلت كورقة شجرة جافة في مهب زوبعة متناوحة، يحدق بها تلال صغيرة من الجليد تبرز من تحت سطح الماء ثم تختفي دون انقطاع، والأمواج تصكها ثم تغمرها وهي تهدر فيمزق هديرها الصمت المخيف.

شعرت بالبرد يقرس أصابعها فلم تجد لنفسها بُداً من دس يديها تحت إبطيها لتحافظ على ما تبقى من دفء فيهما، أما قدماها فكانتا تؤلمانها لدرجة تعز على الاحتمال ولذا عزمت على أن ترتدي ملابس الشتاء الثقيلة صباح اليوم التالي دون اكتراث لاعتراضات رفاق الرحلة.

كان الظلام يكاد ينشر ستاره. اجتاحتها رغبة لا تقاوم في النوم أسبلت جفنيها في إعياء وغمغمت لنفسها:

إن اعتراضاتهم أهون عليّ من لذعة البرد. سأرتدي في الصباح بنطلوني الفضفاض، والحذاء الرائع والقفاز من الفراء. دخلت في حقيبة البيات الجلدية ونامت ليلتها نوماً متقطعاً شديد العذاب، تكاد تنتفض من البرد. استيقظت في الصباح وهي تقفقف من البرد... خرجت من الحقيبة وراحت تبحث عن الملابس التي كانت استخرجتها من حقائبها في الليلة الفائتة، فلم تجد لها أثراً.

اضطرت إلى ارتداء ملابسها الخفيفة المعتادة ثم صعدت إلى السطح.

ارتسم الذهول في وجهها. عجبت غاية العجب لاختفاء البحر، وقفت تجيل عينيها في سهل من الجليد ذي لون رمادي كئيب لا يحده إلا الأفق وتجيش سماؤه بسحب ملبدة تركض في صفحته مثقلة بالظلمات.

زمجرت الرياح كاسرة وصرخت كعزيف الجان فصم أذنيها زفيفها.

ترامة السهل مستكناً في وحشة أبدية. لم تند عن السفينة حركة أو صوت يشي بوجود كائن حي سواها، فبدت السفينة قفراء لدرجة الرعب. لا شيء لا معنى ولا طعم.

هرعت إلى الجانب الآخر من السفينة فرأت الرفاق يجتمعون في كومة متلاصقة على كثب من السفينة وهم يحدقون نظراتهم في وجهها. كان الصمت يشمل الجمع المحتشد... صمت واجم ثقيل.

وقفوا ينظرون إليها لا يزيحون عنها البصر. لاحظت أنهم يرتدون معاطف سميكة من الفراء. وقفت تحدجهم بنظرات مستطلعة على حين سفعت الرياح الباردة وجهها فأحمرت أرنبة أنفها.

لمحت أحدهم يخطو خطواً سريعاً إلى الأمام ثم يتوقف ملوحاً لها بيد يغطيها قفاز وتحمل لفافة ضخمة.

فغرت فاها دهشة عندما رأت ملابسها داخل اللفافة: بنطلونها من الفرو الذي يتسع عليها أيما اتساع، والقبعة الضخمة والقفاز. مر الوقت مقطراً العذاب.

كانت تعلم أن الهبوط من السفينة إلى الأرض التي تجمدت ثلجاً تجربة لا تخلو من عذاب وألم وإن لم تكن مستحيلة، ثمة سلم من الحبال كان يتدلى على جانب من السفينة. أسرعت الهبوط على السلم. تجرعت العذاب حتى الثمالة.

أحست كأن منشاراً ينشر قدميها.. كما لو أن درجات السلم من الحبال قدت من أسلاك حديدية لتجمدها دون رحمة.

كما أن أسطح الحبل الزجاجية كانت تصلى يديها عذاب الجحيم. فور أن هبطت السلم، راحت تمضي في خطوات سريعة كأنها مشتركة في سباق المشي صوب رفاق السفينة.

بيد أنها توقفت بغتة عن السير في هرولة وقد لاحت في عينيها دهشة لا تخلو من انزعاج لحد الفزع والذهول.

تسمرت في مكانها مختطفة الدم ذاهلة عندما لمحتهم يدورون على أعقابهم بغتة بدفعة غريزية أو باتفاق غير معلن ويطلقون للريح سيقانهم لائذين بالفرار منها.

دق قلبها لوقع المفاجأة.

دهشت دهشة بكراً دار لها رأسها إلا إنها أفاقت من ذهولها في ثوان وراحت تعدو وراءهم بعزيمة لا تعرف الخور.

بيد أن الأرض كانت زحلوقة لا تثبت فيها القدم فكانت قدمها تزل أحياناً فتفقد توازنها وتسقط فكان الحشد الهارب يتوقف عن الركض حينئذٍ ويستديرون نحوها وهم يتفحصونها بنظرات ثاقبة.

أما الرجل الذي كان يحمل ملابسها فكان يلوح لها باليد التي تحمل اللفافة في صمت، وهو يرقص في رشاقة احترافية على أنغام موسيقاه الباطنة وعيناه تصرخان بحقد وشماتة عجيبين.

كانت كلما زلت قدمها وسقطت فوق أديم الأرض تنهض دون إبطاء وتعاود الركض حتى انبهرت أنفاسها وخارت قواها. راحت تلهث من شدة التعب وجعل صدرها يعلو وينخفض ويسيل عرقها بارداً. أغمضت عينيها في إعياء واستسلام.

لم يتوقفوا عن الركض في هذه المرة ليستديروا برؤوسهم إليها ويحدجوها بنظراتهم الجامدة وهم يطالعونها بسحناتهم الخالية من أي تعبير، وإنما واصلوا الركض بوحشية كمن به مس أو كمن تسلط الجنون تماماً على وعيه. وسرعان ما استحالوا بقعاً سوداءً في صحراء ناصعة البياض ثم ذابوا في البياض اللانهائي مخلفين وراءهم صمتاً مخيفاً وهواءً بارداً يلسع العظام.

لفحتها ريح باردة عاتية فسرت إلى جسمها المتعب رعدة تمشت في مفاصلها. جعلت الريح الباردة تلفح كعبي قدميها العاريتين كلسع السياط وتسدد طعنات تحت إبطيها كخنجر مسموم.

تمتمت بصوت مرتعش النبرات: سأهلك من البرد.

عطفت بصرها من فوق كتفها إلى الطريق الذي أتت منه فعجبت أشد العجب لاختفاء السفينة كأن الأرض قد فغرت فاها وابتلعتها كما أنها عجزت عن تذكر الاتجاه الذي جاءت منه.

بدت في حيرة قتالة وكرب عظيم.

لم تدر أي الطرق تسلك للعودة إلى السفينة، فكانت لا تكاد تخطو نحواً من مائة خطوة في اتجاهٍ ما ينعش الأمل المحتضر في صدرها حتى تساورها الهواجس وتتسابق الظنون إلى قلبها، فتدور على عقبيها وتشرع في الركض في الاتجاه المقابل، بيد أنه رغم ركضها في جميع الاتجاهات لم تشعر بالدفء يسري في أوصالها بل ازداد إحساسها بوطأة البرد.

راحت تضرب في الأرض على غير هدى حتى تناهى بها الإعياء.

زلت قدمها مرتين فسقطت فوق أديم الأرض بلونها الرمادي وقساوتها لحد الإيلام، وسرعان ما تهاوت دون حول فيما يشبه الانزلاق على جدران هوة عميقة

حتى استقرت متأرجحة فوق حافة صخرة تبرز من أحد الجدران ثم فقدت توازنها فتهاوت إلى حفرة من الجليد رقدت فيها دون حراك.

تمتمت في نبرات يائسة: سأموت هنا ها هو النوم يناديني بإغراء لا يقاوم سوف أفارق الحياة وأنا نائمة.

استيقظت. فتحت عينيها فرأت الشباك ينضح بلون الفجر بخيوطه الزرقاء وقد نشبت في الظلماء في محاولة رائعة لهدم جدار الظلام الغليظ الذي لا يمكن أن تخترقه عين. ألفت عيناها الظلمة فبهتت وخفت وطأتها فتراءى المكتب والمشجب والصوان أشباحاً قائمة.

ظلت مستلقية في الفراش وقد جف في حلقها الريق وارتعدت منها الفرائص لرؤية هذا الكابوس، يلهج لسانها بالشكر لله أن مغامرتها التي انخلع لها قلبها فزعاً لم تكن إلا حلماً مفزعاً.

أحست بعد هنيهة بقشعريرة البرد تسري في جسدها، فحبكت غطاء الفراش حول جسدها.

التفتت نحو زوجها قائلة بصوت متشك ملئ بالمرارة: يا لفظاعة البرد!

تقلبت على الفراش وتطامنت في حضنه تطامن الفرخ في حضن أبيه نشداناً للدفء. شعرت بلذعة البرد توخزها وخزاً أليماً كأن البرد تجمد ثلجاً في جسده. انتترت واثبة كالملدوغة وهي تصرخ صرخة مدوية ممزقة بوحشية الألم.

تحسست الجدار فوق الفراش حتى عثرت على مفتاح الكهرباء فأضاءت المصباح. اقتربت من زوجها بارتياع وقد ثبتت عيناها على وجهه. مالت نحوه وأحاطت خديه براحتيها.

راح جسمها ينتفض من البكاء وهي تنظر إلى الوجه الغريب الموسوم بميسم الفناء، تشوبه زرقة مروعة، ويرين على صفحته سكون غير دنيوي، في عمق العدم ولا نهائيته.

و. هنــري

O. Henry

و. هنري O. Henry هو الاسم الذي اصطنعه ويليام سيدني بوتر (1862 - 1910) لنفسه وعُرف به في عالم الكتابة دون اسمه واسم أبيه ذلك الكاتب الأمريكي الذي بلغ منزلة فريدة في عالم القصة القصيرة. ولد و. هنري في جرينز بورو بولاية كارولينا الشمالية. انقطع عن الدراسة في سن الخامسة عشرة. رحل إلى تكساس في العشرين من عمره واستقر فيها اثني عشر عاماً. قضى وراء القضبان ثلاث سنوات بتهمة الاستيلاء على أموال أحد البنوك وهي تهمة كان يسعه البرء منها لو لم يفر إلى هندوراس، أنفق سنوات عمره الباقية في نيويورك. أصيب بالسل وتوفى في عام 1910.

قلوب وأيادٍ مغلولة

للكاتب: و. هنري O. Henry

في محطة دنفر صعد إلى القطار المتجه إلى بوسطون بين حشد من الخلق. كان يجلس على مقعد في أحد العربات فتاة وضاحة الوجه زهراء اللون كالقمر الطالع أنيقة الملبس والهندام تلوح عليها آي النعيم بفخامة مظهرها، وينبئ رواؤها على أنها نشأت في حجر النعمة، وتنعم بالعيش الرغيد، والحياة الرهيفة الطيبة.

دلف إلى القطار محمولاً بتيار الراكبين الجدد رجلان: شاب حسن القسمات ينطق وجهه بالنبل والصراحة والعزم، تفيض نظرته بالاعتداد بالنفس يسير لصقه رجل يكبره سناً طويل الجسم عريضه، تظلل وجهه سحابة أسى وحزن ربما تبرر اضطراب ملابسه لحد الرثاء، من تكسر بنطلونه وانحسار ذراعي الجاكتة عن رسغيه وتقبض القميص ورثاثة رباط الرقبة كانت اليد اليمنى لأحدهما مغلولة إلى اليد اليسرى للآخر بقيد حديدي. عثر بصرهما وهما يسيران في الممر بالمقعد المزدوج الوحيد الشاغر في العربة والذي يواجه الفتاة فجلسا عليه. خطفت المرأة منهما نظرة تنطق بعدم الاكتراث بيد أن هذه النظرة التي غامت لأول وهلة بغشاء خفيف من الفتور غاضت من عينيها وخلفتها نظرة تألقت فيها بسمة ذكريات قديمة. مدت لأحدهما يداً يغطيها قفاز رمادي في حركة تشي بشعورها بقدر ذاتها. وراحت تتحدث إليه حديث الواثق بنفسه تسري في كلماته رنة العظماء حين يتحدثون إلى من يصغرونهم منزلة وقدراً ابتدرته قائلة: لا أجد لنفسي بُداً من مفاتحتك الحديث إن كانت هذه رغبتك، ألا تلقي بالتحية إلى أصدقائك القدامى عندما تصادفهم في الغرب؟

وثب قلب الشاب وثباً من شدة الخفقان لدى سماع صوتها، وكاد يثب من مجلسه كالملدوغ بيد أنه استصرخ إرادته وعقله لينتشلاه من الحرج والضيق، وسرعان ما نفخ سحب القلق والوساوس ومد يده اليسرى وأمسك بأصابعها قائلاً وقد افتر ثغره عن ابتسامة متكلفة:

آنسة فير تشيلد يا للبهجة المنعشة! أرجو أن تلتمسي لي العذر لعدم مد اليد الأخرى للمصافحة فهي كما ترين مقيدة. ثم رفع يده اليمنى المكبلة بقيد حديدي يطوقها عند الرسغ إلى اليد اليسرى لرفيقه ليريها إياها دون أن ينبس، سرعان ما غاضت من عيني المرأة نظرة البشر والسرور وخلفتها نظرة تنطق بالرعب والذهول. غاض الدم في وجنتيها وتجلى الوجوم في صفحة وجهها الصبيح الجميل، ضحك ايستون ضحكة مقتضبة كمن طرب طرباً استخفه وأخرجه من قيود الاتزان، وهمّ بمواصلة حديثه إلا أن رفيقه أومئ إليه أن يسكت، كان هذا الرفيق الذي يكتنف

وجهه ظلال الحزن يحدج المرأة الشابة بنظرات فاحصة من عينين ثاقبتي النظرة تشي بالاهتمام الذي لا يخلو من انزعاج. قال لها بلهجة هامسة ملؤها الرجاء:

أرجو أن تغفري لي يا آنسة إقحام نفسي في الحوار الدائر بينكما، بيد أنني أرى أن أسباب التعارف تربط بينكما ولذا فإنني أعتقد أنك إذا طلبت إليه أن يتشفع لي لدى القائمين على السجن الذي نقصده فلن يتردد عن قبول طلبك وهو أمر قمين بأن يخفف من قبضة إحساسي بالقهر والعذاب في سجن لفنورث الذي يسوقني إليه والذي سأقضي بين جدرانه سبع سنوات بسبب جريمة تزوير اقترفتها. تلقت كلماته كما يتلقى الظمآن قطرة من الماء العذب. ندت عنها تنهدة ارتياح. هزت رأسها في طرب مفاجئ وخاطبت ايستون قائلة وقد تورد وجهها بهجة: أوه إنك تعمل ضابط تنفيذ أحكام هنا. فقال ايستون بهدوئه الذي لزمه طيلة الوقت: عزيزتي فير تشيلد على المرء أن يتعيش من حرفة أو مهنة يصطنعها لنفسه فأنت تعلمين أن النقود سرعان ما تتبخر.. تختفي فلا يقف لها على أثر أو خبر. كما أنك تعلمين لا ريب أن من لا يملك من عيشه إلا الكفاف والقلة لا يسعه أن يجاري الأصدقاء والخلان في واشنطن فيما يظفرون به من الدنيا من أسباب اللهو والسعادة والانشراح.

لقد وثبت إلى هذه الفرصة السانحة في الغرب، فبلوغ العز في نيل الفرص.

إنني أقر أن مهنة ضابط لا ترقى إلى علو مهنة سفير وبريقها الأخاذ.. إلا أن.. فقاطعته قائلة بحماس تألقت له عيناها الجميلتان: إن السفير قد انقطع عن زيارتنا. هذا إلى أنه لم يكن ثمة داع لإتحافنا بالزيارة إذ لم تربطنا به قط وشائج الصلة الوثيقة وهو ما ينبغي لك أن تحيط به علماً. إن قلبي يثب من الجذل عندما أتمثلك أحد أبطال الغرب المغاوير الذين لا يشق لهم غبار. فيتخايل لعيني صورتك وأنت تمتطي صهوة جوادك وقد وقف مستوفزاً على رجليه الخلفيتين وأنت تطلق النيران في جميع الجهات، في حين تتساقط فوارغ الرصاص فوقك. فهذه الحياة جد مختلفة عن الحياة في واشنطن، فبينهما ما بين السماء والأرض من تباين. لقد أوحشت رفاقك القدامى في واشنطن.

ثم راحت تراوح النظر بين وجهه وبين القيد الحديدي يخطف بريقه الأبصار وقد قلقت في عينيها الواسعتين نظرة حائرة مشوبة بالاهتمام. قال الرجل الآخر بلهجة يدب فيها الحماس: غربلي نفسك من الوساوس والهواجس يا آنسة. فجميع ضباط الأحكام يشدون أنفسهم إلى السجناء بقيد حديدي أن يولوا هاربين. فلا تتركي الوساوس تستأثر بقلبك، فالسيد ايستون يؤدي واجبه على خير وجه.

التفتت نحو السيد ايستون متسائلة: هل سنراك قريباً في واشنطن؟ فقال لها ايستون على سبيل الاعتذار: ليس في القريب العاجل على ما أعتقد، فالمشاغل تستغرقني في الوقت الحالي، فأجدني أنوء تحت عبء المسئوليات الجسام.

راحت ترنو إليه بعينين يقطر منهما الشوق والحلم كأنما تقول: إنني أهيم بالغرب هياماً. وجعلت من آن لآن تسبح بنظرها خلال نافذة القطار شاخصة إلى قطع السحاب تتسابق مع الريح. تمرد لسانها على تحفظه فتدفق الكلام من فيها كالشلال الهادر، مزيحة وقارها وتحفظها المعتادين جانباً وقد تألقت عيناها ببريق أمل: لقد قضيت أنا وماما الصيف في دنفر، لكن ماما عادت إلى واشنطن منذ أسبوع عندما علمت بمرض والدي صمتت هنيهة ثم استطردت قائلة:

بوسعي أن أعيش في الغرب حياة ملؤها السعادة، فالحياة هنا تستهويني بجو المتعة والإثارة الذي يغلفها. فإن تمضي بعقد من اللؤلؤ يضئ نحرك وقرطين من الماس في أذنيك ليس كل شيء في الحياة.. ثمة أشياء أخرى. بيد أن الناس يسيئون الفهم دائماً فتجدهم يلجون في العناد ويهيمون في وادي الحماقة والغباء.

استشعر الرجل الذي تلوح بعينيه نظرة حزينة تقطر غماً نذر الخطر الوشيك تحيط برفيقه إحاطة القيد الحديدي بمعصمه، فقال متكلفاً لهجة الغضب بصوت كالرعد: سيدي الضابط.. إنه لظلم بيّن أن تسترسلا في الحديث دون ضابط أو رابط على حين أحس بحرارة العطش تكاد تحرق حلقي. فلتقدني إلى عربة الطعام الآن دون إبطاء.

نهض الرجلان مستأذنين في الانصراف.

قال ايستون بصوت خافت متئد متزن النبرات والابتسامة التي لا تخلو من فتور لا تزايل شفتيه: لا يسعني أن أرفض هذا الطلب، فالماء هو قرة عين البؤساء ومنبع حبهم ومعقد آمالهم، فلا يسع المرء كما تعلمين أن يتصامم عن نداء الواجب ثم مد يده ليصافحها مودعاً. قالت وقد عاودت اصطناع السحنة التي تشع وقاراً وبلهجة تنم عن ثقة مكينة بالنفس وهي ترفع رأسها في كبرياء: من سوء الحظ أنك لا تقصد شرق البلاد. إذ يجب عليك أن تواصل الرحلة إلى لفنورث. أليس كذلك؟

أجاب بلا اكتراث في الظاهر: بلى، لا مفر من مواصلة السفر إلى لفنورث! قطع الرجلان الممر في خطوات متثاقلة متخاذلة إلى عربة الطعام. فور أن غيبهما باب العربة، عطف أحد الراكبين رأسه نحو الجالس لصقه، وكانا قد سمعا ما دار من حديث، قائلاً بلهجة تشي بالرضا والارتياح:

هذا الضابط القائم على تنفيذ الأحكام عف اللسان، وديع القلب دمث الأخلاق، لين الجانب، رقيق الحاشية إن بعض الضباط في الغرب لا ريب هادئو الطباع وعلى خلق عظيم.

فتساءل الآخر وهو يتمادى في الاهتمام: ألا تتعجب مثلي من فوزه بمثل هذا المنصب رغم صغر سنه البادي؟ فقال الأول وهو يرفع حاجبيه في تساؤل إنكاري: صغير السن؟! أوه..

ألم تتكشف لك الحقيقة بعد؟ هل سبق لك أن رأيت ضابط تنفيذ أحكام يربط يده اليمنى بقيد حديدي باليد اليسرى لسجين؟

الهواية التي يكرس لها قلبه

للكاتب فردريك براون

مال سانجستروم على أذن الصيدلاني وهمس قائلاً: ثمة شائعة تغمغم بها الألسنة بأن لديك.. ثم سكت وعطف بصره من وراء كتفه إلى مدخل الصيدلية ليستوثق من خلو دكان العقاقير الصغير من شخص ثالث.

كان الصيدلاني قصيراً نحيفاً مشوه القوام غير معتدل القامة ذا سحنة وحشية وحيوية شيطانية ولذا بدا له شديد الخطورة لا يؤمن له جانب كما عجز عن أن يحدس سنه الذي كان يتراوح بين الخمسين والمائة. واصل سانجستروم بلهجة هامسة رغم تيقنه من انفراده به.. بأن لديك سماً لا يمكن للمحقق أن يعثر له على أثر عند معاينة الجثة.

أمن الصيدلاني على قوله بانحناءة من رأسه. تزحزح عن موقفه متثاقلاً ثم التف حول الطاولة ومضى إلى باب الدكان وأغلقه ثم دار على عقبيه ومضى صوب باب تنسدل عليه ستارة رقيقة خلف الطاولة قائلاً: كنت على وشك أن أتناول القهوة فهذه ساعة الراحة المعتادة. إني أدعوك لتحسو فنجاناً من القهوة معي. مضى سانجستروم وراءه إلى حجرة خلفية رصت جدرانها برفوف مثبتة من أعلاها لأسفلها تعلوها زجاجات الدواء. وضع الصيدلاني قابس جهاز صنع القهوة الكهربائي في مقبسه من الجدار وتناول قدحين ووضعهما على خوان يحيط به كرسيان متقابلان، أشار إليه بالجلوس على أحدهما في حين جلس هو على الآخر، ثم حدجه بنظرة نافذة قائلاً: الآن خبرني من تريد أن تقتل ولماذا؟

فتساءل سانجستروم متظاهراً بقلة المبالاة: أيهمك هذا حقاً؟ ألا يرضيك فحسب أن أنقدك ثمن..

فقاطعه بإشارة حاسمة من يده. ارتفع صوته بحدة كأسنان المنشار قائلاً: نعم إن الأمر يهمني بلا ريب، يجب أن أكون على اقتناع تام أنك تستحق ما أعطيك وإلا..".

ثم لاذ بالصمت وقد تجمع التصميم في زاويتي فيه وهو يرفع منكبه استهانة فقال سانجستروم بصوت تشي نبراته بانفعاله وتأثره. "إن الشخص الذي أريد قتله هو زوجتي. أما السبب فهو.. راح يروي قصته باستفاضة كمن أصيب بلوثة من الثرثرة الهاذية. بيد أن الأزيز الذي ند عن جهاز صنع القهوة منذراً بغليان السائل قطع عليه حديثه.

نهض الصيدلاني واقفاً دون استئذان ليصب القهوة من الإبريق في القدحين. أنهى سانجستروم روايته ثم رفع القدح إلى فمه وأفرغ ما فيه دفعة واحدة في تقزز كأنما يتجرع شربة، هز الصيدلاني رأسه بالموافقة على إعطائه السم وهو يضغط على جناحي أنفه بأصبعيه متأملاً ثم قال بهدوء وهو يطالع سانجستروم بعينيه الذابلتين اللتين أحرق الاحمرار أشفارهما: نعم إنني أهب زبائني من حين إلى آخر سماً لا يسع أي محقق الكشف عما يخلف من أثر.. دون أي مقابل عندما أشعر أنهم يستحقون الهبة لقد مددت يد العون لقتلة عديدين. فقال سانجستروم ملتمساً الطمأنينة لنفسه: هذا أمر طيب، أعطني الآن ما أريد. تفرس الصيدلاني في وجهه مبتسماً وهو يقول: لقد نلت ما تبغي في حقيقة الأمر، فقد بت مقتنعاً في قرارة نفسي بأنك تستحق أن أهبك السم فور أن فرغتُ من صنع القهوة. لا تحمل للأمر هماً فلن استأديك ثمناً له كما وعدت بيد أنك لن تجد لنفسك بُداً من دفع ثمن الترياق الذي يفسد أثر السم. امتقع وجه سانجستروم حتى حاكى وجوه الموتى. فرغم أنه كان لا يستبعد أن يقع فريسة مكر وجشع هذا الصيدلاني أو ابتزازه، إلا أن هذه الكارثة لم تقع له في حسبان.

دس يده في جيبه واستخرج مسدسه. انطلقت من فم الصيدلاني الذي يستلفت الأنظار بضآلة جسمه ونحافته وقصر قامته ضحكة باردة كفرقعة السوط في الهواء وقال: لن تجرؤ أن تضغط على الزناد! ثم وهو يلوح بيده صوب الرفوف التي رصت عليها زجاجات الدواء: أتعتقد أن بمقدورك العثور على الترياق وسط آلاف الزجاجات أو حتى الظفر بسم أنفذ أثراً وأسرع فعالية تتعاطاه لتتحامى من عذاب الانتظار؟ أما إن كنت تظن أنني أحيك أكذوبة ماكرة وأنك لم تتجرع السم، فلا تتردد أن تفرغ المسدس فيّ وترديني جثة هامدة بيد أنه ستتكشف لك الحقيقة خلال ثلاث ساعات عندما تشعر بالسم يسري في عروقك.

صاح سانجستروم مرعداً كالوحوش الضارية: كم ثمن الترياق؟ فأجاب: ثمن معقول ألف دولار فإنك تعلم أن على المرء أن يتعيش من حرفة أو عمل على أي حال، حتى لو كان العمل الذي يكرس له قلبه هو وأد جرائم القتل.

فلماذا لا ينبغي على المرء أن يعدها وظيفة تمكنه من لقمة العيش؟ استحال قلب سانجستروم جمرة من نار يتطاير عنها شرر الغضب والمقت.أخذ غيظه يفور حتى أجهده أن يكتمه فندت عن فيه زعقات الغضب والويل، وعندما سكنت فورته وضع المسدس على حافة الطاولة في متناول يده تحسبًا لاحتمال أن تراوده نفسه على قتله بعد أن يناوله زجاجة الترياق. دس يده في جيب سترته وأخرج حافظة نقوده واستخرج منها عشر ورقات من ذوات المائة الدولارات ووضعها فوق الطاولة بين يدي الصيدلاني الذي لم تند عنه حركة تشي بتلهفه على تناولها من فوقها. هز رأسه وقد ارتسمت شبه ابتسامة على شفتيه ثم قال بلهجة من تذكر أمراً هاماً: عليك أولاً أن

تحرر خطاباً إلى مجهول تكاشفه بنيتك، أعني نيتك السابقة إن لم أخطئ الفهم – قتل زوجك وعليك أيضاً أن تنتظر حتى أضعه في مظروف أعنونه بعنوان صديق لي وأخرج لأودعه صندوق البريد بيدي وسوف يحتفظ به الصديق كشاهد أو دليل في حال إن عاودت التفكير في الأمر كله وصدقت عزيمتك على قتل زوجك أو قتلى.

سكت ريثما جمع أنفاسه ثم استدرك قائلاً وهو يرمقه بنظرة حذرة مترعة بسوء الظن: بعد أن أودع الخطاب صندوق البريد بيدي سأرجع إلى الدكان وقد ابتل ريقي برحيق النجاة لأعطيك الترياق والآن سأناولك ورقة وقلماً، على فكرة ثمة شي آخر أطلب منك أن تؤديه لي رغم أنني لا أصر على أدائه إصراري على تحريرك الخطاب. فهلا تكرمت بنشر خبر سمي العجيب في أرجاء الحي! من يدري ما يخبئه له الأقدار فعندما لا يعدم المرء أعداء يتربصون به فربما تكون الحياة التي ينقذها من الهلاك هي حياته هو نفسه.